الإنسان والحياة العملية عند سبينوزا

زياد كمال مصطفى *

تأريخ التقديم: 2020/7/10 تأريخ القبول: 2020/8/22

المستخلص:

لا تنفصل ماهية الإنسان عند سبينوزا عن انثروبوجيا الحياة الاجتماعية في فلسفته ، ولا عن مراتب المعرفة الممكنة لديه ، فحياتنا العملية تابعة لحياتنا العقلية . لكن الإنسان ذاته حال من أحوال "الله" أو الطبيعة بما هي كل ، وتحكمه في الحياة عناصر انفعالية أبرزها (الرغبة) كتعبير مباشر عن ميل الإنسان إلى حفظ وجوده كونه واعياً بهذا الميل ، لذا كان لا بد من سعي الإنسان إلى التغلب على انفعالاته كي يؤدي ذلك إلى تأكيد المعاني الاجتماعية في نفسه ، ذلك هو أساس الفضيلة . فالسعادة الحقة التي هي الغرض المنشود لحياة الإنسان العملية لا تكمن في لذة الجسم والميل لحفظ البقاء وحسب ، بل في فعل الخير . ذلك أن "الكوناتوس" المرتبط بهذا الميل ، يمثل قوة الوجود المعبرة بالضرورة داخل كل الكائنات الفردية عن قدرة "الله" اللا نهائية . فإذا كانت حكمة الإنسان الحر هي تأمل لا في الموت وإنما في الحياة ، فإن الخلاص لن يتم إلا لمن يطبقون هذه القاعدة في الحياة : أي لمن يطيعون "الله" ، على حين يهلك من يعيشون تحت سيطرة اللذات "ومن تخّيل هلاك ما يكره كان مسروراً" . ذلك هو حال الإنسان السبينوزي ، وتلك هي طبيعة الحياة العملية الخيّرة التي ينبغي عليه أن يعيشها .

الكلمات المفتاحية : الانسان ، الرغبة ، الطبىعة ، الحىاة ، العملىة ، السعادة القصوى

مشكلة البحث :

* استاذ مساعد / قسم الفلسفة/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

تدور مشكلة البحث حول وجود تناقضات في شرح سبينوزا لماهية الإنسان وبيان مفهومه ، فالفيلسوف يصف تارة الحياة العاطفية والشعورية بأنها الأولى ، وأن عليها تتأسس الحياة العقلية كتصور واضح متميز للذات والعالم وكتأمل . وفي مواضع أخرى نجد في وصفه لذات العلاقة تأكيداً لتبعية حياتنا العملية لحياتنا العقلية ، ما يمهد تمهيداً صريحاً لمثالية مطلقة هيجلية تفضي في كنه معطياتها إلى اخضاع الواقع لمنطق الفكر ، وما يجعل الحياة العقلية فوق حياة الوجدان . فالفلسفة العملية "الأخلاقية" عند سبينوزا لا تنفصل عن العقلانية ولا عن موضوعات الميتافيزيقيا ، فضلاً عن أن الإنسان السبينوزي محكوم بجملة عوامل تقيّد من تحديد ماهيته في الحياة العملية من بينها (الجبرية ، والطبيعة ، والرغبة ، والانفعالات) ، فضلاً عن سعي الإنسان في حفظ بقائه من جهة ، والسعي للفضيلة لكسب السعادة من جهة ثانية . فهذه الاشكاليات وغيرها هي ما سيتركز عليها موضوع البحث .

البحث (أهميته ومنهجه) :

يتتبع البحث الإنسان في مفهومه ، وبيان رغباته وانفعالاته وصلته بالطبيعة (الطابعة والمطبوعة) ، وصولاً إلى الطبيعة العملية للحياة الخيّرة "الفاضلة" والذي يعد رابطاً وشيجاً ما بين محكومية الإنسان في هذا العالم وتحرره في الخلاص الحقيقي المنشود ، والمتمثل بخلاص الإنسان المطيع حقاً . ونسعى فيه إلى تقديم رؤية منهجية عن أجزاء من مشروع كبير جاء تحت مُسمى "علم الأخلاق" , ذلك المشروع الذي أسسه سبينوزا على "رسالة موجزة في السعادة 1660" سبقت كتابه المذكور ، وعلى أسس هندسية تأمل في تطبيقها على جوانب فلسفة عملية عنوانها الإنسان. هذا التدرج في المنهج والفلسفة ، والذي يشّكل وحدة المشروع السبينوزي ، هو ما حدا بنا إلى اتباع منهج " التحليل الفلسفي" لتتبع هذا التطور في اقترانه وتناقضه على حدٍ سواء .

حدود البحث وهدفه :

تتركز محاور البحث أو محركاته الأساس على المعطيات التالية ضمن فلسفة سبينوزا : (من المعرفة إلى الأخلاق ، ماهية الإنسان الأخلاقي ، الرغبة والانفعال ، الحياة العملية والسعي الى الفوز بالسعادة المقترنة بالفضيلة). إذ تهدف هذه

المعطيات إلى تكوين رؤية قيمية أخلاقية لمفهومي الإنسان والحياة العملية عند الفيلسوف ، وهي تنحو نحو ايجاد تحديد يتفق مع سياق عقلانية هذه الفلسفة ، معتمدين في ذلك على نصوص سبينوزا ، وما قدمه الشراح بصددها ، محاولين الاسهام باضافة جديدة إلى ما جاء به الباحثين في ميدان الدراسات حول الفلسفة الأخلاقية أو العملية عند الفيلسوف.

تمهيد : سبينوزا [1] والمشروع الأخلاقي Spinoza and the ethics project

يقول رسل : " سبينوزا هو أنبل وأحّب الفلاسفة الكبار ... وكنتيجة طبيعية اعتبر ، أثناء حياته ، وإلى قرن من الزمان بعد مماته شراً مروعاً ! "[2]. فحينما بلغ سبينوزا الثالثة والعشرين من عمره أظهر معارضة شديدة لمعتقدات اليهود وطقوسهم الدينية ، وقد بذل المجتمع اليهودي جهوداً كبيرة في استرضاء سبينوزا بالمال لكي لا يفصح عن آرائه المعارضة للدين . ولكن عبثاً ذهبت تلك الجهود ولذلك قرر المجتمع حرمانه من الكنيس واعتباره زنديقاً . ولما بلغ العداء لسبينوزا حداً أخذ

1. باروخ سبينوزا (1632–1677) ، ولد عام 1932 في امستردام من عائلة يهودية كانت قد هاجرت من اسبانيا إلى هولندا هرباً من الاضطهاد الديني وقد درس في التلمود والتوراة وبعض الفلاسفة اليهود مثل موسى بن ميمون وغيره . وتوفي في لاهاي التي هاجر اليها عام 1677 . أيد سبينوزا الفلسفة الديكارتية واشتهر بالمنهج الهندسي في نطاق الفلسفة العقلانية والقول بمفهوم الجوهر ومفهوم الفكرة الوافية ، وطبق مراتب المعرفة على فلسفته الأخلاقية . من أبرز مؤلفاته : الأخلاق Ethics ، رسالة سياسية Tractatus Politicus ، ورسالة لاهوتية سياسية Tractatus Theologico Politicus، والأفكار الميتافيزيقية Metaphysical Thoughts ، وبحث في اصلاح العقل Treatise on the Improvement understanding ، ومبادئ فلسفة ديكارت Principles of Descartes Philosophy ، ورسالة قصيرة في "الله" وفي الإنسان وسعادته Short Treatise on "God" , Man , and his Well – Being.

2. رسل ، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ؛ مجلد 3 ، ترجمة : محمد فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بلا ط ، 1977 ، ص 120 .

يهدد حياته بالخطر اضطر الى مغادرة امستردام إلى لاهايThe wague وعاش بقية حياته فيها حتى توفي في العام المذكور[1].

يتم عرض مذهب سبينوزا بتلخيص ثلاثة من كتبه ، وهي : رسالة في اصلاح العقل (1661) ، والأخلاق (1677) ، والرسالة اللاهوتية السياسية (1670). وأصحها كتاب الأخلاق ، فإنه جامع يلخص الكتب المذكورة ويكملها [2]. وقد نهج سبينوزا في مؤلفه الأخلاق المنهج الهندسي[3] وهو المنهج اللائق بمذهبه[4] الذي ينزل من الواحد الى الكثير، إذ يقول في هذا الكتاب: "سيبدو بالتأكيد غريباً أن أشرع في بحث عيوب الناس وعاهاتهم على طريقة علماء الهندسة ، وأن أرغب في البرهنة بدقيق الاستدلال على ما لم ينفكوا يعلنون عن مناقضته للعقل وبطلانه وخلفه وفظاعته"[5]. ففي فكر سبينوزا ، الحياة ليست مجرد فكرة ، أو مسألة نظرية ، إنما هي (طريقة للوجود). ومن هذا المنظور يمكن فهم الطريقة الهندسية في مجال الأخلاق ، والتي بفضلها لم تعد الأخلاق متمثلة لا بالطابع التأملي فحسب ، بل الطابع العملي كذلك[6].

---

1. متى ، كريم ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي ؛ منشورات جامعة بنغازي ، كلية الآداب ، 1974 ، ص 91 .
2. عويضة ، كامل محمد محمد ، باروخ سبينوزا " فيلسوف المنطق الجديد " ، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ، ط 1 ، 1993 ، ص 109 .
3. وفقاً لقول سبينوزا " سأنظر إلى الأفعال والشهوات الإنسانية كما لو كان الأمر يتعلق بخطوط وسطوح وجوامد " (سبينوزا ، باروخ ، علم الأخلاق ؛ ترجمة : د. جلال الدين سعيد ، مراجعة. جورج كتورة ، المنظمة العربية للترجمة _ مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، 2009 ، ص 147).
4. أي مذهب وحدة الوجود .
5. سبينوزا ، علم الأخلاق ، ص 146 .

6 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; Translated by: Robert Hurley , City Lights Books , San Francisco , First edition in English , 1988 , p 13 .

فالإجماع حاصل تقريباً على أن كتاب "علم الأخلاق" هو تحقيق للمشروع الذي خططه سبينوزا في (رسالة في اصلاح العقل)[1] . كذلك يعد مؤلفه الموسوم بــــ(الرسالة الموجزة في "الله" وفي الإنسان وسعادته والتي أعدها مابين 1650-1660) ، بمثابة المسودة لكتاب علم الأخلاق[2] ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على وحدة المشروع السبينوزي .

فمنذ " الرسالة في اصلاح العقل " ، عبر سبينوزا ، إلى جانب رغبته في تقديم منهج للبحث عن الحقيقة ، عن طموحه لتأسيس مشروعه الأخلاقي ، فكان منطلقه بالسؤال عن حقيقة الخير الذي يكون خيراً حقيقياً قابلاً للتوصيل تزهد النفس فيما عداه ولا تتأثر بسواه ، حيث يجعلها اكتشاف هذا الخير وامتلاكه مبتهجة دائماً أعظم ابتهاج[3] . وإذا كان الأخلاق هو موضوع المقالتين الأخيرتين من كتاب سبينوزا في "علم الأخلاق" ، إلا أنه أطلق أسم الأخلاق على الكتاب كله (لأن غاية النظر عنده العمل)، ولأن اتجاهه الأساسي أخلاقي كما هو الحال عند الرواقية[4] في الفلسفة اليونانية[5] ، ولعل هذا ما دعا رسل إلى القول " لقد تخطى بعضهم –سبينوزا– في الجانب العقلي، لكنه أعلاهم في الجانب الأخلاقي "[6].

1. سبينوزا ، باروخ ، رسالة في اصلاح العقل (لزوميات المقال) ؛ ترجمة : جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر – تونس ، بلا ط ، 1990 ، (ضمن التقديم) ، ص 16 .
2. سبينوزا : المصدر السابق ، هامش ص 13 .
3. جلال الدين سعيد : سبينوزا والكتاب المقدس ، ص 108-109 .
4. الرواقية مدرسة للفلسفة الهلنستية أسسها زينون سيتوم اليوناني من أصل فينيقي أوائل القرن الثالث قبل الميلاد في رواق بوكيلي ، ومن هنا جاءت تسميتها نسبة إلى المكان . والرواقية هي في أساسها مذهب في فلسفة الأخلاق تسترشد مع هذا بمنطق يعد نظرية في المنهج وتقوم على الطبيعة = الفيزيقا كأساس لها. (ستيس ، وولتر ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة ، بلا ط ، 1984 ، ص 279).
5. كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة ؛ دار العالم العربي – القاهرة ، ط 1 ، 2001 ، ص 109 .
6. برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج3 ، ص 120 .

ففي نظر سبينوزا يتعذر قيام "علم بالإنسان" بغير تحليل مبدئي تنظيمي لجملة سلوك الإنسان العيني الذي يبدو في ظاهره فوضوياً ، مع انه يخضع في الواقع لحتمية صارمة . إن سبينوزا يرمي عرض الحائط بكل دراسة للطبيعة الإنسانية تقوم على أحكام أخلاقية مسبقة ، ويرفض تقييم سلوك الإنسان قياساً على سلم قيمي أصيل نزعة متعالية أو نزعة دغمائية لاهوتية تؤكدان بشدة على فساد الطبيعة الإنسانية جراء الخطيئة الأولى[1]. ويشير سبينوزا إلى أنه كي يتسنى لنا تحقيق الغاية التي نسعى إلى توجيه جميع أفكارنا نحوها ، ولكي نتعرف على أفضل إدراك يسمح لنا بتحقيق كمالنا ، وعلى أول سبيل ينبغي أن يسلكه الفكر الحر حتى يكون منطلقه سليماً " فالمطلوب من المنهج أولاً: أن يميز الفكرة الصحيحة عما سواها من الادراكات ، وأن يحفظ الفكر من هذه الأخيرة ، ثانياً: أن يضبط القواعد التي تسمح ، وفقاً لهذا المعيار ، بادراك الأمور المجهولة ، ثالثاً: أن يؤسس نظاماً يجنبنا عناء البحث في الأمور التافهة ... ، رابعاً: إنه سيكون أكمل المناهج إذا ما حصلت لدينا فكرة الكائن الكامل ، وبالتالي فعلينا ، بادئ ذي بدء ، أن ندأب على بلوغ هذا الكائن بأسرع ما يمكن "[2].

أما عن النور الفطري -الذي دعا إليه سبينوزا- في كتاباته الدينية فهو لم " يوضع موضع الاحتقار فحسب ، بل إنه كثيراً ما أُدين باعتباره مصدراً للكفر ! ، وأصبحت البدع الإنسانية تعاليم إلهية ، وظن الناس أن التصديق عن غفلة هو

1. الشامخ ، فاطمة حداد ، الفلسفة النسقية ونسق الفلسفة السياسية عند سبينوزا ؛ ترجمة : جلال الدين سعيد ، مراجعة. صالح مصباح ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع – لبنان بيروت ، وزارة الشؤون الثقافية معهد تونس للترجمة ، ط 2 ، 2017، ص 69 .
2. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص 40-41 .

الإيمان[1] ، وأثار الجدل داخل الكنيسة وفي الدولة انفعالات شديدة نتجت عنها أحقاد قاسية ومنازعات وفتن بين الناس بالاضافة إلى شرور أخرى كثيرة؟"[2].

ولذلك يقول سبينوزا عن كتابه رسالة لاهوتية سياسية: " اني لا أدعوا العامة أو من يسيرون على هوى انفعالاتهم الى قراءة هذا الكتاب . وإنه لأفضل لي أن يتجاهلوه تماماً ، من أن يؤولوه تأويلاً خاطئاً كعادتهم دائماً . ذلك لأنهم لن يستفيدوا منه ، بل سيجدون فيه وسيلة لايقاع الشر وللاساءة إلى بعض الفلاسفة الأحرار الذي لا يعتقدون بوجوب وضع العقل في خدمة اللاهوت"[3] .

والنهج العقلي ذاته نراه عند سبينوزا في المجال الأخلاقي (العملي) ، ذلك لأن الحد الفاصل بين البحث في الطبيعة والبحث في الإنسان يختفي تماماً لديه ، والدلالة الواضحة لبحثه موضوعات ميتافيزيقية رئيسة في كتابه "الأخلاق" هي أن سبينوزا قد أحدث تغييراً أساسياً في النظرة الفلسفية إلى مجال الأخلاق ، فهو يرفض تماماً تفرقة الفلاسفة التقليديين بين مجال المعرفة النظرية الخالصة ، وهو الميتافيزيقا ومجال المعرفة العملية[4] وهو الأخلاق[5]. وإن نظام الأخلاق الذي يدعو الناس إلى الضعف ويعلم الإنسان أن يكون ضعيفاً هو نظام لا قيمة له وغير جدير بالاهتمام في نظر

1. يقول سبينوزا في ذلك : " عقدت العزم على أن أعيد من جديد فحص الكتاب المقدس بلا ادعاء وبحرية ذهنية كاملة ، وألا اثبت شيئاً من تعاليمه أو أقبله ما لم أتمكن من استخلاصه بوضوح تام " (سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص 114) .

2. إسبينوزا ، باروخ ، رسالة في اللاهوت والسياسة ؛ ترجمة وتقديم : د. حسن حنفي ، مراجعة : د. فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ، ط 1 ، 2005 ، ص 114 .

3. سبينوزا : المصدر السابق ، ص 118 .

4. ان الحكمة السبينوزية هي على غرار الحكمة القديمة ، كل واحد لا ينفصل فيه الجانب المنهجي عن المبحث الانطولوجي ، ولا المبحث الانطولوجي عن الجانب الايثولوجي Ethologigue وعن الغائية

(سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، –ضمن التقديم– ص 17) .

5. زكريا ، فؤاد ، اسبينوزا ؛ مؤسسة هنداوي – القاهرة ، بلا ط ، 2017 ، ص 204 .

سبينوزا[1]. ذلك أن الخير الأخلاقي –عند سبينوزا– موسوم بنفعه للإنسان ، وتطوير قدرته على الفعل ، وتحقيق كينونته كإنسان[2].

فسبينوزا لا يقيم أخلاقه على محبة الآخرين وطبيعة الخير في الإنسان كغيره من المصلحين المثاليين ، ولا على الأنانية وطبيعة الشر في الإنسان كالمحافظين الكلبيين ، ولكنه يقيمها على ما يعتبرها أنانية لا مفر منها ولها ما يبررها[3]. فأساس الفضيلة هي نوع من الأنانية المعتدلة التي تعين صاحبها على الاحتفاظ بوجوده ، وهو لا يرى في حب الشخص لنفسه أي ضرر يلحق بالآخرين[4]. فإذا كانت فلسفة الحياة عن سبينوزا تقتضي الوقوف على مفهومي (الخير والشر) ، فإن ما يفسد الحياة بالفعل هو الكراهية[5].

وبحسب سبينوزا ، فإننا حالما نطرح الفرضية المجردة وغير القابلة للتحقيق بالتجربة ، فرضية حرية الارادة ، يصبح تأمل الطبيعة الإنسانية متوقفاً على دراسة سلوك الإنسان وتفسيره بفضل قوانين الطبيعة دونما تقييم أو اطلاق حكم أخلاقي عليه . فالمنهج الذي يريد أن يتوخاه سبينوزا في ملاحظة أفعال الإنسان وانفعالاته ينفر من كل موعظة أخلاقية[6]. فالإنسان عند سبينوزا حال متناه من أحوال الله "أو الطبيعة بما هي كل" ، وبقدر ما يزداد تفكيره وضوحاً وتمييزاً أي كفاية ، فإنه بذلك القدر يزداد كمالاً[7]. وإذا كان الباحثين – قبل سبينوزا – قد ترددوا في أن يطبقوا

---

1. ديوي ، جون ، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ، ترجمة : فتح الله محمد المشعشع ، شركة دار المعارف ، ناشرون – بيروت لبنان ، ط2 ، 2017 ، ص 141 .
2. جلال الدين سعيد : سبينوزا والكتاب المقدس ، ص 108 .
3. جون ديوي : المصدر السابق ، ص 141 .
4. محمود ، زكي نجيب ، م (فلسفة سبينوزا – 2) ؛ مجلة الرسالة ، مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون – القاهرة ، رئيس التحرير : أحمد حسن الزيات ، العدد 15 السنة الأولى اغسطس 1933 ، ص 20 .
5 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 26 .
6. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 65 .
7. كريم متى : الفلسفة الحديثة – عرض نقدي ، ص 124 .

على الإنسان نفس المبادئ التي تطبق على الطبيعة بوجه عام ، ونظروا إلى الإنسان على أنه "استثناء" من المجرى العام للطبيعة . وكان من نتيجة ذلك أن ظلت طبيعة الإنسان مجهولة لديهم على الدوام ، فإن سبينوزا لم يضع الانسان في مركز مميز يعلو فيه سلوكه على سائر الظواهر الطبيعية[1]. وهو يقول في ذلك : " إن معظم الذين كتبوا عن الانفعالات وعن سلوك الإنسان في الحياة يبدو كأنهم يعالجون اموراً خارجة عن الطبيعة ، لا اموراً تسير وفقاً للقوانين الطبيعية ، بل يبدو إنهم يتصورون الإنسان في الطبيعة كما لو كان دولة داخل دولة . وفعلاً إنهم يعتقدون أن الإنسان يخلّ بنظام الطبيعة أكثر مما ينساق له ، وإن له سلطاناً مطلقاً على أفعاله الخاصة ولا يخضع إلا لنفسه "[2].

فالهدف من علم الأخلاق السبينوزي ليس الوعظ والارشاد ، وانما هو الدراسة والبحث والفهم ، لينقل بذلك الأخلاق من مجال (ما ينبغي أن يكون) إلى مجال (ما هو كائن) ، وليؤكد أن مهمته بوصفه باحثاً أخلاقياً ليست أن يحتقر أو ينتقد ، وإنما ليفهم الطبيعة البشرية على ما هي عليه[3]. فإذا كان كتاب الأخلاق قد بدأ بالميتافيزيقا ، فإنه يمضي إلى سيكولوجيا الانفعالات والارادة ، ويضع أخلاقاً مؤسسة على ما تقدم من ميتافيزيقا وعلم نفس[4] ، وهو بذلك يهتم ، بكل ما في الكلمة من معنى ، بأن يبين كيف يمكن لنا أن نعيش في " نُبل " حتى عندما نتبين حدود القدرة الإنسانية[5]. وعلى حد تعبير جيل دولوز ، فإن علم الأخلاق كعلم للسلوك ، تتركز في في وجهة نظر سبينوزا على الأفعال التي تتضمن المشاعر والعواطف في محدداتها الداخلية والخارجية معاً[6].

1. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 212 .
2. المصدر السابق : ص 145 .
3. فؤاد زكريا : المصدر السابق ، ص 203-204 .
4. برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج3 ، ص 122 .
5. المصدر السابق : ج3 ، ص 133 .

6 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 27 .

من هنا يماهي سبينوزا في كتابه الأخلاق بين "الكوناتوس" وبين النزوع إلى الاستمرار في الوجود ، إذ يستخدم هذا اللفظ للدلالة على نزوع الكائن بقدر ما له من الكيان إلى الاستمرار في كيانه[1] وعلى السعي إلى الاثبات المطلق الذي يكشف لدى الحال عن قوة وقدرة العلة الوحيدة التي تعلله[2]. إذ " لا يعدو أن يكون الجهد (Conatus) الذي يبذله كل شيء من أجل الاستمرار في كيانه غير ماهية ذلك الشيء الفعلية"[3] و"لا شيء ينفع الإنسان في حفظ وجوده والتمتع بحياة موافقة للعقل أكثر من الإنسان الذي يهتدي بالعقل ... فلما كنّا لا نعرف من بين الأشياء الفردية شيئاً أفضل من الإنسان الذي يقوده العقل ، فلا أحد يستطيع إذاً أن يبرهن على مهارته وكفاءته بغير تدريب الناس على العيش تحت سيادة العقل بالذات"[4] إذ تكون أفعالنا ، أي "رغباتنا" تلك التي تحددها قدرة الإنسان أو عقله ، دائماً حسنة ، أما الرغبات الأخرى فقد تكون حسنة أو قبيحة[5]. وبهذا المعنى ، لا يوجد شر (في ذاته) ، ولكن هناك ما هو سيء بالنسبة لي[6].

لذا ولكي يؤكد سبينوزا ذلك التماهي ما بين (الكوناتوس والرغبة)[7] ، سيجعلهما مبدأ الحياة الذي يظل قائماً في كل الأحوال التي توجد ضمن نظام الطبيعة الكلي ، والذي يخضع لحتمية مزدوجة ، حتمية العلة الالهية وحتمية الأشياء الجزئية التي يعد الإله علتها الأولى ، التي تفعل وتنفعل مع بعضها لتحقيق ماهيتها[8].

---

1. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 156
2. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 36 .
3. سبينوزا : المصدر السابق ، ص 156 .
4. المصدر السابق ، ص 304 .
5. المصدر السابق : ص 248 .

6 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 33 .

7. بوصف الأولى نزوع وجهد في الاستمرار في الوجود ، والثانية لكونها ماهية الانسان . مع ملاحظة الفارق بينهما من أن (الكوناتوس) يهم جميع الأشياء الفردية دون أن يقتصر على الانسان وحده ، في حين أن مفهوم (الرغبة) متعلق بالانسان فقط.

8. مراوي ، بلال ، بحث (الرغبة والنسق الايثولوجي في فلسفة سبينوزا) ، مؤمنون بلا حدود ، قسم الفلسفة والعلوم الانسانية ، نوفمبر 2016 ، ص 9 .

والانسان (كرغبة متمثلة بالكوناتوس) ، وإن لم يكن ذلك ظاهراً ، يميل في الواقع إلى المثابرة في الوجود ، وبما أن تلك المثابرة تتمثل في الصبر ، فإن هذه الرغبة في الانسان لا تنطوي على مدة محددة[1]. وذلك ما يدعونا للبدء في التعّرف على ماهية الإنسان.

المبحث الأول / ماهية الإنسان Human essence

إن الاطار الذي يتناول فيه سبينوزا "ماهية الإنسان" ووجوده ورؤيته للوضع البشري عموماً ليس هو اطار الانثروبولوجيا فحسب ، بل هو كذلك الاطار السياسي ، إذ يتفرع مبحثه إلى ثلاث مستويات : الإنسان في الطبيعة الكلية وفي الطبيعة الشخصية ، والإنسان في المجتمع السياسي ، والإنسان في "المدنية" ، وتتجلى هذه المستويات في ثلاث نصوص : (الأخلاق ، والرسالة اللاهوتية السياسية ، والرسالة السياسية)[2]. لكن بحثنا سيتركز على مفهوم الإنسان في الأخلاق والحياة العملية ، ليكون هذا المفهوم ضمن ما عبر به سبينوزا بعلم الإنسان في كتابه الأخلاق في المستوى الأول بالنسبة لهذه الدراسة .

بدايةً يعّرف سبينوزا الإنسان ، على غرار كل الأشياء الواقعية ، بوصفه حالاً متناهياً من أحوال الله أو الطبيعة بما هي كل . إذ لا يوجد سوى جوهر واحد ، وهو غير متناه اطلاقاً ، أي الله[3]. وليس الجوهر ما يؤلف صورة الانسان ، وأن ماهية الانسان هي شيء موجود في الله ، ولا يمكنها بدون الله أن توجد ، ولا أن تتصور، فهي عرض أو حال متناه يعبر عن طبيعة الله بطريقة معينة ومحددة [4]. ولا اختلاف اختلاف بين الإنسان والأحوال الأخرى إلا في درجة التعقيد وهو لذلك يشغل مكاناً أرفع منها وتأتي بعده الحيوانات والنباتات وأخيراً ما يسمى بالكائنات الغير حية ، من هذا كان الجسم البشري أكمل من أجسام الكائنات الحية الأخرى ويحتوي على قدر من الواقع أكبر مما تحتويه هي منه ، وهذا معناه أن للانسان قوة أكبر مما للأشياء

1 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 98 - 99 .

2. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 29-30 .

3 . سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 45 .

4. المصدر السابق ، ص 91 – 92 .

الجزئية الأخرى(1). فقوة الإنسان ، وبقدر ما يتم تفسيرها من خلال جوهرها الفعلي ، هي جزء من قوة الله أو الطبيعة اللا نهائية2.

والإنسان مركب من حال امتدادي هو جسمه ، ومن حال فكري هو نفسه . الجسم آلة مؤلفة من آلات ، والنفس فكرة الجسم ، أي فكرة موضوعها الجسم الموجود بالفعل ، فهي تبدأ وتنتهي مع الجسم ، وعلتها خارجة عنها تلتمس في أحوال أخرى من الفكر مقابلة لأحوال الامتداد التي هي علة الجسم(3). فالإنسان إذن حال متناه يتألف من عقل وجسم منظوراً إليه من خلال صفة الفكر مرة ومن خلال صفة الامتداد مرة أخرى(4). فجسم الانسان يتم التعبير عنه من خلال الامتداد ، وليس على النحو المعبر عنه من خلال أي سمة أخرى ، وذلك مما لا يتنافى مع صفة الفكر ، فالفكر وموضوعه هما ما يشكلان الفرد الواحد ، رغم اختلاف السمات فيما بينها ، فالإنسان حال متناه ، وهو يمثل "فكر" ، وامتداد "الجسم البشري"(5)، وعليه يغدو من الواضح إن ماهية الإنسان تتألف فقط من روح وجسم .

فهذه حقيقة أزلية بل هذه أولية . فمن جهة كونه حالاً من أحوال الامتداد ، فإن الإنسان جزء من هذه السلسلة اللانهائية للأشياء المحددة ، ومن جهة كونه حالاً من أحوال الجوهر التابعة لصفة الفكر ، فإن الإنسان يفكر ، وإن التفكير خاصة ضرورية من خواص مفهوم تنتمي بصورة أزلية لماهيته وتعريفه. ان التفكير خاصية مشتركة بن كل الناس(6). وهكذا يكون الإنسان خاضعاً للحتمية(7) من جهتين اثنتين ، (

---

1. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص 117 .

2 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 98 .

3. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، 115 .

4. كريم متى : المصدر السابق ، ص 117 .

5 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 89 .

6. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 54 .

7. يقول سبينوزا : " أنا أعتبر حراً الشيء الذي هو موجود ويتحرك فقط بفعل ضرورة طبيعية ، وأسمي اكراهاً الشيء الذي هو محتوم ويحدد بشيء آخر في وجوده وفي حركته " (سبينوزا :

بوصفه جسماً وبوصفه فكراً) ، ويكون من كل جهة خاضعاً لحتمية مخصوصة . ولا يوجد أي خلط أو التباس في هذا التفسير الذي يقدمه سبينوزا ، الا أن الإنسان يمثل وحدة من تلك الوحدات التي يتألف منها الكون ، إنه وحدة مركبة ، وأن ما يوحده هو نزوعه الى حفظ كيانه[1].

والإنسان كحال من أحوال "الله" أو الطبيعة بما هي كل ، ماهيته تتألف من أحوال معينة لصفات "الله" ، لأن وجود الجوهر لا يعود الى ماهية الإنسان ، إذن فالإنسان شيء موجود في "الله" ، وبدون "الله" يستحيل أن يوجد أو يتصور[2]. وفي النظام الكلي للطبيعة ، يخضع الإنسان للعناصر الأخرى كما يخضع لأمثاله من البشر ، رغم انه يظل مختلفاً : ذلك لأنه يتجلى كجسد فردي وسط الاختلاف كما يثبت اختلافه هذا بما هو فكر[3].

هذه النظرة إلى الإنسان وانفعالاته على أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة ، تسري عليه نفس القوانين التي تسري عليها ، جعلت سبينوزا يعالج الانفعالات على أنها ظواهر طبيعية خالصة ، وينزع عنها كل ما كان يعزى اليها على يد الفلاسفة التقليديين من أسباب "استثنائية" متعلقة بمجال الإنسان وحده[4]. فهو يقول : " أعني بالفرح الانفعال الذي تنتقل به النفس الى كمال أعظم ، وبالحزن الانفعال الذي تنتقل به إلى كمال أقل . ثم اني اطلق انفعال الفرح ، عندما يتعلق بالنفس والجسم معاً ، لفظ الدغدغة[5]، أو البهجة ، وعلى انفعال الحزن لفظ الألم أو الكآبة"[1].

مراسلة من سبينوزا الى شولر ، نقلاً عن ، سبيلا ، محمد و بنعبد العالي ، عبد السلام ، الفلسفة الحديثة " نصوص مختارة "؛ افريقيا الشرق – المغرب ، بلا ط ، 2001 ، ص 273).

1. المصدر السابق : ص 35 .

2. ابراهيم مصطفى ابراهيم : الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم ، ص 205 .

3. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 41 .

4. فؤاد زكريا : اسبينوزا، ص 213 .

5. يقول سبينوزا: " لا بد من الاشارة إلى أن الدغدغة والألم يتعلقان بالانسان عندما تتأثر بعض أجزائه أكثر من غيرها ، والبهجة والكآبة عندما تتأثر كل الأجزاء على حد سواء " (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 159) .

ذلك أن كون اللذة والألم "انتقالاً" هو الدليل على انهما انفعالان مرتبطان بافتقار الإنسان إلى الكمال ، إذ أن من طبيعة الإنسان أن يمر بأحوال مختلفة في درجة كمالها ، وفي عملية الانتقال ذاتها تكون اللذة أو يكون الألم[2] . ويضيف سبينوزا إلى انفعالي (اللذة والألم) انفعالاً ثالثاً هو "الرغبة" ، والذي هو التعبير المباشر عن ميل الإنسان إلى حفظ وجوده وعن كونه واعياً بهذا الميل ، فالرغبة[3] هي "عين ماهية الإنسان من حيث تصورها مدفوعة ، بموجب انفعال من انفعالاتها الذاتية إلى فعل شيء ما الصالحة لحفظها "[4]. وعليه فكل عمل يؤدي إلى المحافظة على الإنسان ومن ثم منفعته – هو خير[5].

والحقيقة أن هذا الانفعال الأخير –أي الرغبة– يجرنا للحديث عن (الحرية) ، فسبينوزا يرى في الحرية أنها لا تتعارض مع الضرورة ، وإنما مع التحكم أو الإرغام الخارجي ، فالحرية هي الضرورة الباطنة ، أي أن الكائن يكون حراً إذا لم يكن يرغمه شيء خارج عنه ، وإنما يكون سلوكه متفقاً مع الضرورة الباطنة لطبيعته فحسب[6]. وبقدر ما يكون الإنسان جزء لا إرادة له من كل أكبر ، فهو في عبودية ، ولكن بقدر ما يكتسب الإنسان من خلال الفهم الحقيقة الوحيدة للكل فهو حر[7].

فالحرية الإنسانية الحقيقية تتحقق في المعرفة العلمية الصحيحة ، ومن يقع تحت سلطان العبودية يصبح أسير الأقدار لا سيد نفسه[8] ذلك أن العبودية تنم عن " عجز

1. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 159 .
2. فؤاد زكريا : اسبينوزا، ص 214-215 .
3. يرى سبينوزا انه "لا يوجد أي فرق بين الشهوة والرغبة ، عدا أن الرغبة تتعلق عموماً بالانسان من حيث انه يعي شهواته ، ولذلك يمكن تعريفها كما يلي : الرغبة هي الشهوة المصحوبة بوعي ذاتها" (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 158).
4. سبينوزا : المصدر السابق ، ص 211 .
5. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص 118 .
6. فؤاد زكريا : المصدر السابق ، 209 .
7. رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج3 ، ص 128 .
8. ابراهيم مصطفى ابراهيم : الفلسفة الحديثة ، ص 207 .

الإنسان عن كبح إنفعالاته والتحكم فيها ، ... والإنسان الذي تقهره الإنفعالات لا يكون ولي نفسه بقدر ما يخضع لسلطان القدر ، حتى إنه غالباً ما يجد في نفسه مجبراً على القيام بالأسوأ مع انه يرى الأفضل"[1].

بمعنى أن الإنسان الحر هو الإنسان الذي يسيطر على شخصيته الفردية التي تطبع نفسها بمثله وقيمه العليا ، بحيث تصبح هذه الفردية هي المتحكمة والمسيطرة على نشاطه ورغباته وما يدخل بينها من ارتباط[2]. و"كل ما يكون الإنسان علته الفاعلة ، يكون خيراً بالضرورة ، وبالتالي فكل ما يطرأ على الإنسان من شر إنما يطرأ عليه من أسباب خارجية ، أي من جهة كونه جزءاً من الطبيعة الكلية ، التي ينبغي أن تخضع لها طبيعته الإنسانية وأن تطيع قوانيها وتتكيف معها بعدد لا محدود من الأوجه"[3]. ولكن يتعذر على الإنسان مهما كانت غايته المنشودة ، أن يتخلى عن ماهيته ويتجرد من طبيعته ، بل على العكس ، هو لن يبلغ غايته ولن يتحقق عيشه في الفضيلة إلا بالعيش وفق قوانين طبيعته الشخصية[4] ، فالفضيلة عند سبينوزا لا تتناقض مع معنى (الكوناتوس) ، مادام الكوناتوس يمثل الجهد المبذول والعمل بموجب توجيه العقل ، أي السعي إلى اكتساب ما يؤدي إلى المعرفة والأفكار المناسبة والمشاعر والعواطف الحية[5]. لنجد في فلسفة سبينوزا اعادة لبناء وصف ماهية الطبيعة الإنسانية وتحليله للأهواء والوجدانيات.

فالعاطفة أو الشعور ليست خيراً أو شراً في نفسها ، ولكن بمقدار ما تنقص أو تزيد من قوتنا[6]. "والكوناتوس" بما هو الجهد الذي به يسعى كل كائن للاستمرار في في كيانه ، إنما هو ماهية الشيء الفعلية : إنه قوة مثبتة ، لأنه يثبت في الشيء ذاته ، قوة المقاومة ضد كل ما يناقضه ويحطمه . إذ بفضله يستطيع الإنسان – بوصفه

---

1. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 229 .
2. ابراهيم مصطفى ابراهيم : المصدر السابق ، ص 207 .
3. سبينوزا : المصدر السابق ، 303 .
4. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، 113 .
5 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 104
6. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 141 .

حالاً محدوداً ككل الكائنات – أن يثبت ذاته كفرد ، أي كوحدة مركَّبة ومركِّبة ، باقية ومستمرة رغم التباين والتغير . وهكذا فان الكوناتوس إنما هو قوة الوجود المعبرة بالضرورة داخل كل الكائنات الفردية عن قدرة "الله" اللانهائية باطلاق[1]. والانسان بفضل ما يمتلك من (كوناتوس) ، أو قوة في التعبير عن الرغبة ، قادر على أن يمتلك الحرية ، لكن التأثيرات التي يفسرها بأنها جوهرية ، مرتبطة بالجوهر " أي الله " وما يتبعه ، لا بالارادة والى ما يحكمها[2].

إن مبدأ سبينوزا الأساسي الذي فسر من خلاله كل مظاهر سلوك الإنسان ، أي مبدأ (الاستمرار في الوجود) ، هو في حد ذاته مبدأ للفاعلية ، بينما هو يعد كل ما يعوق فعل الإنسان شراً[3]. وإذا كان "الكوناتوس" يعبر عن الماهية الفعلية للأحوال المحدودة ، باعتبار أن ماهية الإنسان تختلف عن ماهية الكائنات الطبيعية الأخرى ، فإن ماهيته تكون مختلفة هي أيضاً[4].

والإنسان إذا تحكمت به العواطف لا يرى إلا جانباً واحداً من الموقف . وبالفكر وحده يستطيع الإنسان أن يرى موقفه من جميع نواحيه . إن العاطفة فكرة ناقصة ، والعواطف الغريزية عظيمة كقوة دافعة ولكنها خطيرة كمرشد لنا ، لأن كل واحدة من الغرائز تبحث عن اشباع رغباتها ، غير مهتمة بمصلحته الشخصية كلها[5] ، وإذا كان " يمكن لقوة الهوى والانفعال أن تتفوق على أفعال الإنسان ، أي على قوته ، بحيث يظل الانفعال عالقاً بهذا الإنسان ... فإنه لا يمكن لانفعال من الانفعالات أن يزول أو يُعاق إلا بانفعال مناقض له وأقوى منه "[6]. فكونك عظيماً –برأي سبينوزا–

1. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 40 .
2 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 70 – 71 .
3. فؤاد زكريا : اسبينوزا، ص 215 .
4. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 41 .
5. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 142 .
6. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 239 .

سبينوزا- لا يعني إنك فوق الإنسانية وتتحكم بالآخرين ، بل يعني أن تقف فوق الشهوات وأن تحكم نفسك بنفسك[1].

ونختم الحديث في ماهية الإنسان بنص لسبينوزا ضمن (رسالته في اصلاح العقل) يقول فيه: " في انشغالنا وسهرنا على ابقاء العقل في الطريق السوي ، لا بد لنا أن نعيش ، ولا بد بالتالي أن نضع عدداً من القواعد ننظر إليها على أنها قواعد جيدة ، وهي[2] :

1. أن يكون حديثنا في مستوى عامة الناس وأن نسلك سلوكاً يروق لهم ولا يمنعنا من بلوغ هدفنا : فنحن قد نجني الكثير من ذلك ، بشرط أن تنزل عند رغباتهم قدر الامكان ، هذا فضلاً عن اننا سنجد بهذه الطريقة آذاناً صاغية للحقيقة .
2. أن نتمتع بملذات الدنيا في حدود ما يساعد على حفظ الصحة .
3. ألا نرغب في المال ولا في أي خير آخر إلا بقدر ما يفيدنا في حفظ حياتنا وصحتنا وفي الامتثال لطبائع المجتمع التي لا تناقض هدفنا .

بعد هذه القواعد أشرع ... في اصلاح العقل وجعله قادراً على إدراك الأشياء إدراكاً يسمح ببلوغ الهدف المنشود ". ويشير د. فؤاد زكريا إلى أن النتائج الاجتماعية الواضحة التي يستخلصها سبينوزا من نظريته في قهر الانفعالات . هذه النتائج تلخص في ان الانفعالات هي أساس الشقاق بين الناس ، وإن العقل أساس التقريب بينهم . فإذا كان العقل هو وسيلتنا إلى قهر الانفعالات ، فلا بد أن سعي الإنسان إلى التغلب على انفعالاته يؤدي هو ذاته إلى تأكيد المعاني الاجتماعية في نفس الإنسان[3].

---

1. جون ديوي : المصدر السابق ، ص 144 .
2. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص 31 .
3. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 220 .

المبحث الثاني : الإنسان ما بين الطبيعة المطبوعة والطبيعة الطابعة[1].

أولاً / الإنسان والطبيعة Human and nature

يقول د. فؤاد زكريا عن سبينوزا : "إن الأخلاق من وجهة نظر معينة مستحيلة في مذهبه ، وهي من وجهة أخرى أساس ذلك المذهب والعنصر الجوهري فيه ، ومن المستحيل تفسير هذا الازدواج الغريب إلا من خلال الارتباط الوثيق بين موضوع الأخلاق (وهو الإنسان)، وبين (الضرورة الطبيعية) في مجموعها"[2]. فبرأي سبينوزا معظم الأخطاء والأوهام التي تتخلل فكر الإنسان إنما تعود إلى وهم أصلي رئيسي هو وهم (الغائية) ، وتتمثل عموما في تصور الآلهة والطبيعة على أنها تسلك بكامل الحرية ودائماً لأجل غاية محددة ، إذ لما كان الناس يجهلون عادة علل الظواهر فقد تصوروا وجود مدير أو مدراء للطبيعة يتمتعون بحرية إنسانية يستجيبون لحوائجهم ويسخرون كل الأشياء لهم[3].

لكن انطلاقاً من الرغبة – التي هي ماهية الإنسان– تتطور كل التحولات التي يسجلها الإنسان بواسطة جسم ويؤولها بفضل فكره ، وهي تحولات تنشأ فيه بسبب حضوره في العالم ، في فضاء توجد فيه أجسام أخرى[4]. فالإنسان إذ يعي أعماله وأسبابها يدرك ذاته كجزء من الطبيعة تابع للكون بأسره[5] وفي ذلك يقول سبينوزا : " ان قدرة الإنسان محدودة جداً ، وتتفوق عليها قدرة الأسباب الخارجية بصورة لا

1. الطبيعة الطابعة عند سبينوزا هو " ما يكون بذاته ومتصور بذاته ، أي صفات الجوهر تلك التي تعبر عن ماهية أزلية لا متناهية ... أو الإله من جهة اعتباره علة حرة " ، أما الطبيعة المطبوعة فهي " كل ما ينتج عن وجوب كل صفة من صفات الله ، وأيضاً ... كل أحوال صفات الله ، باعتبارها أشياء موجودة في الله ولا يمكنها بدونها أن توجد ولا أن تتصور " (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 63-64) .

2. المصدر السابق : ص 204 .

3. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص 95 .

4. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 55 .

5. المصدر السابق : ص 48-49 .

محدودة ، وعلى ذلك فليس لدينا قدرة مطلقة على تسخير الأشياء الخارجية لصالحنا . إلا اننا سنواجه بالصبر الأمور المناقضة لمصلحتنا الشخصية اذا شعرنا اننا قد أوفينا مهمتنا وإنه لم يكن بالإمكان، بما توفر لدينا من القوة ، أن نتحاشى تلك الأمور ، واننا لا نعدو أن نكون إلا جزءاً يخضع لنظام الطبيعة الكلية التي ينتمي إليها "[1].

ومن هنا كان قول سبينوزا : " نرغب في تكوين فكرة عن الإنسان تكون بمثابة النموذج للطبيعة البشرية موضوعاً نصب أعيننا "[2]. فكان أهم طابع يمثل النظرية الأخلاقية عند سبينوزا هو القول إن الإنسان لا يقف بمعزل عن الطبيعة وقوانينها ، فهو قد انتقد بشدة اولئك الذين يظنون إن للإنسان سلطاناً مطلقاً على أفعاله ، وإن شيئاً لا يتحكم فيه سوى ذاته[3]. وهنا يتفق سبينوزا تماماً مع التعاليم الأخلاقية الرواقية ، من حيث قيام الأخيرة على مبدأين أساسين : أولهما أن الكون محكوم بقانون مطلق لا يسمح بأي استثناء ، وثانيهما أن الطبيعة الجوهرية للانسان هي العقل . وكلا المبدأين يتلخصان في الشعار الرواقي (عش وفق قوانين الطبيعة)، فالناس يجب أن يتطابقوا مع الطبيعة أي مع قوانين الكون ، كما يجب أن يطابقوا أفعالهم مع الطبيعة حسب طبيعتهم الجوهرية أي العقل[4]. وعلى الاجمال ، رواقياً ، لا مجال للقول بالعصيان أمام فكرة الضرورة في تعامل الانسان مع قوانين الطبيعة .

لكن الإنسان وإن كان جزءاً من الطبيعة ، فإن علاقاته بالعالم الخارجي علاقات عداء متوترة انها علاقات قوة وعلاقات صراع . ولا يضع سبينوزا مسافة يتعذر قطعها بين الإنسان (بما هو ذات منعزلة) وعالم الأشياء ، فالعلاقة إنسان / عالم ، إنما هي المعطى الأول للتجربة الإنسانية. إلا أن كيفية هذه العلاقة هي ما يحدد قدرة الإنسان أو عجزه . وتتجلى هذه العلاقة إنسان / عالم على مستويات متنوعة[5]. " ولا شيء مما يحدث في الطبيعة يمكن أن ينسب إلى عيب كامن فيها ، إذ الطبيعة هي

1. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 311 .
2. المصدر السابق : ص 232 .
3. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 203 .
4 وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص 282 – 283 .
5. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 70 .

هي على الدوام[1] ، وفضيلتها وقدرتها على الفعل واحدة ، وهي ذاتها في كل مكان ، أي أن قوانين الطبيعة وقواعدها التي تحدث بمقتضاها الأشياء وتنتقل من شكل إلى آخر هي نفسها دائماً وفي كل مكان . وتبعاً لذلك ينبغي أن يكون المنهج السليم لمعرفة طبيعة الأشياء ، مهما كانت هذه الأشياء ، نفس المنهج ، أي منهجاً ينطلق دائماً من قوانين الطبيعة وقواعدها الكلية"[2].

إلا أن سبينوزا لم يقتصر في تفرقته بين الإنسان وباقي الأشياء على رد الاختلاف إلى ما لدى الإنسان من قدرات أعظم للإدراك، إذ أن عقلنا فعال في حالات معينة وسالب في حالات أخرى ، إنه سالب إلى حد أن أفكارنا المميزة تتوالى الواحدة منها عقب الأخرى من تأثير فاعلية منبه خارجي فحسب ، وتبعاً لنظام الطبيعة . وعقلنا فعال من ناحية أخرى ، كما يبين من تعاقب أفكارنا المميزة للمنطق واتباعه لقوانينه[3].

ولمعرفتنا بالطبيعة قيمة سامية "عليا" يحددها سبينوزا بقوله في اصلاح العقل : " كلما اتسعت معرفتنا للطبيعة اتسعت معرفتنا للعلة الأولى أو الله "[4] ، وقوله في كتابه الأخلاق : "كلما ازداد فهمنا للأشياء الجزئية ، ازداد فهمنا للذات الإلهية "[5] . إذ تقتضي الايتيقا السبينوزية وحدة كلية بين الطبيعة والله[6] ، فالطبيعة والله جوهر واحد لا متناه بشكل مطلق وغير قابل للتجزيء . وهو العلة الأولى للوجود ، من

1. فضمن قانون الضرورة لا مجال للاختيار أو الجبر ، ولا حرية ولا قسر ، والطبيعة هي هي لا فضائل فيها ولا آثام ، فالاشجار لن يعنيها أبداً فيما إذا كانت ثمارها ستروق لنا أم لا ، وستظل تنتج في الوقت نفسه وبالطريقة نفسها الثمار نفسها (شباني ، منذر ، سبينوزا واللاهوت ؛ منشورات وزارة الثقافة – الهيئة العامة السورية للكتاب ، بلا ط ، 2009 ، ص 98).

2. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 146 .

3. شاخت ، ريتشارد ، رواد الفلسفة الحديثة ؛ ترجمة : أحمد حمدي محمود ، مهرجان القراءة للجميع 97 ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بلا ط ، 1997 ، ص 119 .

4. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص 56 .

5. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 336 .

6. يقول سبينوزا : " الله حاضر في كل مكان ويرى كل شيء " (سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية سياسية ، ص 350) .

دونه لا يمكن أن توجد الأشياء ، وخارجه لا يمكن تصورها ، إنه علة كل شيء . ولهذا الجوهر اللا متناهي الفريد صفات لا نهائية ، تتمثل في صفتي "الامتداد" و"الفكر" وتتمظهر في الإنسان بوصفه جسماً وفكراً[1]. " فكل ما يطرأ على الجسم فهو يصدر عن الله بوصفه متأثراً بحال من أحوال الامتداد ، لا بحال من أحوال الفكر ، بمعنى انه لا يمكنه أن يتأتى عن النفس التي هي حال من أحوال الفكر "[2]. وفكر الإنسان ، وجسد الإنسان أيضاً ، جزء من الطبيعة ، جزء من عقل "الله" اللا محدود (اللا نهائي) . وكل انسان من حيث هو روح وفكرة جسم ، إنما هو ينتج بالضرورة عن الماهية الإلهية أو ماهية الطبيعة[3].

وإذن فمن المحال أن يكون الإنسان حراً بمعنى أن له مشيئة أو ارادة تسلك من تلقاء ذاتها دون أن يتحكم في سلوكها سبب خارجي ، إذ أن الإنسان على صلة مستمرة بعوامل لا متناهية في العالم المحيط به ، ومن المحال أن يسلك على أي نحو دون أن يأخذ هذه العوامل بعين الاعتبار[4]. فالإنسان "ينقاد وراء النظام العام للطبيعة للطبيعة ،ويتمثل له ويتكيف معه بقدر ما تقتضيه طبيعة الأشياء"[5]. وبعبارة أخرى ، ، فإنه لا يتعين تصور الإنسان باتباع منهج آخر غير المنهج المطبق على باقي الطبيعة ، فنحن جزء من الطبيعة ولا شيء غير ذلك[6]. إذ "من المحال ألا يكون الانسان جزءاً من الطبيعة وألا يتأثر إلا بالتغييرات التي يمكن معرفتها بطبيعته وحدها والتي هو علتها التامة ... فلو كان بوسع الانسان ألا يتأثر إلا بالتغييرات التي يمكن

---

1. سليماني ، الحسان ، بحث (جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة – نقد سبينوزا للأصول الأرسطية والأسس الديكارتية للتعالي الالهي) ؛ مجلة تباين ، العدد 25 – 25،7 ، سنة 2018 ، ص 25 .

2 سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 150.

3. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 56 .

4. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 210 .

5. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 238 .

6. شاخت : رواد الفلسفة الحديثة ، ص 112 .

معرفتها بطبيعته وحدها ، لما كان الانسان فانياً ، ولكان وجوده مستمراً بالضرورة "[1].

ويشير دولوز إلى أن الأخلاق عند سبينوزا هي التي تبرر الوحدة ما بين (الله والطبيعة)[2]. ذلك أن نقطة البداية الأساسية في نظرية سبينوزا الأخلاقية هي الادراك العلمي للارتباط بين الإنسان وبين الطبيعة بوجه عام[3] ، ومن ثم تأكيد سيادة فكرة الضرورة في مجال الإنسان بدوره[4]. "فنحن "تنفعل بوصفنا جزءاً من الطبيعة يتعذر تصوره بذاته ودون الأجزاء الأخرى ، ونكون منفعلين عندما يحدث شيء فينا لا نكون علته إلا جزئياً[5] ... عندما يحدث شيء فينا لا يمكن استنباطه من قوانين طبيعتنا وحدها"[6]. لذلك يقول سبينوزا في خطابه لأحد أصدقائه: " أرى أن العقل الإنساني جزء من الطبيعة ، وذلك لأن الطبيعة توجد بها قوة مفكرة لا متناهية فإنها تعبير عن الطبيعة كلها ، وتحوي بصورة مثالية كل ما فيها ، وتأتي أفكارها بنفس النظام الذي تحدث به في الطبيعة ذاتها ، بل تكون في الحقيقة المرآة المثالية لها ... العقل الإنساني يشبه هذه القوة (الفكر الالهي) ولكن ليس بسبب لا تناهيه وإدراكه لكل الطبيعة ، وإنما بسبب ادراكه لكل طبيعة الجسم الإنساني الذي يتوازن به ولهذا اعتبر العقل الإنساني جزءاً من اللا متناهي"[7].

---

1 سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 337 .

2 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 6 .

3. لأننا كلما تعمقنا في فهم قوانين الطبيعة الشاملة كنا أقدر على فهم سلوك الانسان (فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 205).

4. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 203 .

5. على اعتبار أن الطبيعة عند سبينوزا خالية تماماً من القيم البشرية .

6. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 236 .

7. نقلاً عن : رويس ، جوازيا ، روح الفلسفة الحديثة ؛ ترجمة : أحمد الأنصاري ، مراجعة . حسن حسن حنفي ، المركز القومي للترجمة – القاهرة ، ط2 ، 2009 ، ص 145 .

وهكذا فللانسان عند سبينوزا قوة مميزة يثبت بها وحدته واختلافه عن الأشياء الفردية الأخرى[1]. لكنه ، على الرغم من اختلافه ، فهو يظل مماثلاً لغيره . وبالفعل فهو جزء من كل ، جزء من الطبيعة الكلية ، رغم إنه يؤلف بمفرده كلاً واحداً قادراً على اثبات فرديته ضمن المجموعة الكلية[2].

ثانياً / في طبيعة المتناهي واللا متناهي (الإنسان و"الله") "Human and "God

تمثل الطبيعة الطابعة عند سبينوزا النظام الكلي للأشياء من حيث انه ذو وجود ضروري ، لا يتحكم فيه شيء خارج عنه ، أي أن العلة فيه باطنة . في حين تمثل الطبيعة المطبوعة الأوجه الجزئية أو المكونات الموجودة في العالم من حيث هي تعبير جزئي عن "الصفات" الشاملة للجوهر ، ومن أمثلتها الأجسام الفردية – بما فيها الانسان – والتي لا تُفهم قوانين أوجهها بذاتها ، بل ينبغي دائماً ربطها "بالكامل الشامل" الذي تنتمي إليه[3] أي "الله". "والله" عند سبينوزا موجود على نحوين : لا متناه ومتناه . فهو في الأشياء الفردية موجود على نحو متناه ويؤلف ما يسميه سبينوزا (بالأحوال) ، أما في الطبيعة من حيث هي كل فهو موجود على نحو لا متناه ويؤلف ما يسميه (بالصفات Attributes)[4]. لكن الناس رأوا أنفسهم يسلكون دائماً دائماً من أجل غاية تنفعهم ، وظنوا أن "الله" قد سخر كل الأشياء لغاية خدمتهم ، فقد أطلقوا لفظ (الخير) على كل ما يساعدهم على حفظ أنفسهم ولفظ (الشر) على كل ما يعوقهم عن ذلك[5].

---

1. على اعتبار أن الانسان تحركه قوة باطنية تدفعه إلى اثبات ذاته وإلى المقاومة والتصدي لضغوط العناصر الأخرى داخل النظام المؤلف للطبيعة (فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 42).
2. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 41 .
3. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 119 .
4. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص 109 .
5. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص 98 .

فمن اللازم إذن التمييز الدقيق بين ما "لله" وما للإنسان ، أي التمييز بين ماهية الإله وخصائص الإنسان ، وبيتعبير سبينوزي من الضروري التميز بين الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة[1] فالأولى الإله باعتباره جوهراً فريداً علته في ذاته ، والثانية مجموع الأحوال من أبسطها إلى أعقدها ، وتضم الموجودات العينية مثل النبات والإنسان وجميع أجزاء الوجود[2].

فالكوناتوس –كمبدأ حياة– عند سبينوزا يشير إلى مبدأ ديناميكي لدى الفرد الذي يسعى إلى الوجود ويدأب عليه[3]، ويبقى هذا الجهد في (الحال المحدود) ضمن نظام الطبيعة حيث تخضع جميع الأشياء الفردية لحتمية مزدوجة ، حتمية تأتيها من "الله" وحتمية تأتيها من الأسباب الخارجية ، باعتبار أن "الله" ، بوصفه علة كلية ، يحدد الأشياء الفردية عن طريق سلسلة لا متناهية من الأسباب المتناهية[4].

وكأن سبينوزا يدعونا أن نشاركه حدسه الفلسفي الرئيس ، ألا وهو المتمثل في أن نتحول من وجهة نظر الإنسان إلى وجهة نظر "الله"[5]. فلما كان كل شيء إنما يتلو بالضرورة من ماهية "الله" ، فإن العالم ، إذ تحكمه ضرورة معقولة " لا تلغي لا قانون الله ولا قانون عباده " لا يخضع للقدر المحتوم وللجبرية العمياء . وبقدر ما تكون

1. "الطبيعة الطابعة هو ما يكون بذاته ومتصور بذاته ، أي صفات الجوهر (الله) تلك التي تعبر عن ماهية أزلية لا متناهية ... ، أما الطبيعة المطبوعة فهي كل ما ينتج عن وجوب الطبيعة الإلهية ، أي كل ما ينتج عن وجوب كل صفة من صفات الله و ... كل أحوال صفات الله ، باعتبارها أشياء موجودة في الله ، ولا يمكنها بدونه أن توجد ولا أن تتصور" (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 63-64).

2. الحسان سليماني : جدلية التعالي والمحايثة ، ص 24 .

3. وذلك بوصف الكوناتوس أو الرغبة ، الجهد الذي يسري في الكون كحركة ديناميكية تسكن الطبيعة وتجعلها تتحق في كل لحظة وحين ، وتحقيق هذا الجهد يدفع الانسان الى الدخول في علاقات تأثير وتأثر مع الأشياء الخارجية ، وهو ما يسميه سبينوزا بالانفعال (بلال مراوي : بحث ، الرغبة والنسق الايثولوجي في فلسفة سبينوزا ، ص 10) .

4. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 38-39 .

5. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص 104 .

أفعال الإنسان ضرورية تكون ناجعة ، لأنها تستخدم نظام الأسباب وتعبر عن قدرة الإنسان المميزة التي هي المعرفة التامة بالذات وبالكل[1].

وهكذا يكون من الواضح أن الحرية بمعناها الحقيقي لا تتوافر في هذه الحالة إلا للكون بمعناه الشامل ، الذي لا يتحكم فيه شيء ولا يوجد شيء خارجه حتى يقال إنه يرغمه . وهذا هو معنى العبارة المصوغة بلغة لاهوتية ، والقائلة "إن الله وحده هو الحر"[2]. ولو تساءل الإنسان ماذا سيتعلم من الجبرية ؟ ، فالجبرية تقوينا على احتمال متاعب الحياة أوزارها[3]. لأننا نتذكر أن جميع الأشياء تسير وفقاً لقوانين "الله" الأبدية ، وربما تعلمنا محبة "الله" العقلية ، وأن نتقبل قوانين الطبيعة بسرور ... فالله هو الثابت المدّبر لنظام الكون[4].

فكل شيء –تبعاً لسبينوزا– تحكمه ضرورة منطقية مطلقة . وليس ثمة شيء من قبيل الارادة الحرة في المجال العقلي أو الصدفة في العالم المادي . فكل شيء يحدث هو تجّلٍ لطبيعة "الله" التي لا يمكن فهمها ، ومن المستحيل منطقياً أن تكون الأحداث غير ما هي عليه[5].

إن النفس الإنسانية "بوصفها تعرف ذاتها وجسمها من منظور الأزل ، تعرف الله بالضرورة وتعلم أنها قائمة فيه وتتصور به"[6] ولكن حين يتحد الإنسان مع "الله" لا يتخلى عن ذاته ، بل يحقق ذاته بصورة كاملة ويصبح أكثر من (حال متناه) . وحينئذٍ يكّف عن الغيرة والكراهية ، ولكن لا يكّف عن الحب ، وإنما يكّف عن حب الأشياء المتناهية : فيحب الأشياء لا من حيث هي أشياء متناهية بل من حيث هي تعابير عن

1. فاطمة الشامخ : المصدر السابق ، ص 43 .
2. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 209 .
3. ذلك أن عقيدتنا بالجبرتصلح من حياتنا الأخلاقية وتعلمنا أن لا نكره أو نسخر من أحد أو نغضب من أحد (جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 144) .
4. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 144 .
5. رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ،ج3، ص 124 .
6. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 339 .

اللا متناهي ، ويحب الناس لا من حيث هم رجال ونساء ، بل من حيث هم تجسيد للكائن الأزلي[1].

"وحين يبلغ الإنسان أعلى مراتب الكمال يحصل على السعادة القصوى أو الطوبى Blessedness ، فالخير الأسمى هو معرفة "الله" ، وحين يعرف الإنسان "الله" معرفة حدسية لا يملك إلا أن يحبه ... وإذا استبدلنا "بالله" الطبيعة ، أمكننا أن نقول ان سعادة الإنسان القصوى تقوم في معرفة الطبيعة ومعرفة قوانينها معرفة واضحة وكافية من منظورها الأزلي[2]. فإن السعادة –في ظل قول سبينوزا "بوحدة الوجود"– لا تكمن في التحقق بأمر "الله" وترجمته في خضوع للشرع ، وآراء للشعائر ، بل ان كل ذلك من عمل المقطوعين ، أما الواصلون فشأنهم الالتذاذ بالمعرفة ، فبقدر معرفة العبد "بالله" بقدر ما يكون أرقى ، ويتمتع بالوصول[3] ، ويدين بالحب العقلي "لله" ، "الذي لا يوجد في الطبيعة أي شيء مناقض لهذا الحب العقلي[4] ، أي قادر على إبطاله "[5].

والتقدم الأخلاقي لا يمثل ارتقاءً عبر درجات ، أو عبوراً لمسافة معينة ، وانما هو بمعنى اكتشاف الذات لذاتها ، وتحررها من الجهل ، واهتدائها إلى الحقيقة ، ولا سيما أن الحقيقة –في نظر سبينوزا– ليست غاية نسعى إلى بلوغها ، بل نحن قائمون فيها لأننا قائمون في الوجود والواقع ، أي في "الله"[6]. كذلك نحن " لا نرغب نرغب ، من حيث أننا نفهم ، إلا في الأمور الضرورية ، ولا يمكن أن نجد راحتنا إلا

---

1. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص 122-123 .
2. المصدر السابق ، ص 120 .
3. بن الحسن ، بدران ، بحث (فلسفة وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا ، مجلة حوليات التراث ، جامعة مستغانم – الجزائر) ؛ العدد 10 ، سنة 2010، ص 56 .
4. يقول سبينوزا : " من كان يحب الله ، لا يمكنه أن يسعى إلى أن يبادله الله الحب " ، " فليس للإله للإله إنفعالات سلبية ، وهو لا يشعر بأي انفعال من انفعالات الفرح والحزن " (سبينوزا ، علم الأخلاق ، ص ص 329 ، 331).
5. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 345 .
6. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص 118 .

في الحقيقة "[1]. وليست الحياة الأبدية بقاء النفس بعد فناء الجسم ، أو الخلود في عالم مفارق[2]، وإنما الحياة الأبدية معرفتنا ذاتنا من وجهة الأبدية وتأمل النظام الكلي . وبعبارة أخرى إن النفس سرمدية من حيث هي حاصلة على معرفة الحقائق السرمدية ، وكلما ازدادت معرفتها ازداد حظها من الخلود[3].

لذلك يقول سبينوزا : " من يعرف ذاته وانفعالاته بوضوح وتميز يشعر بالفرح ، ويكون ذلك مقترناً بفكرة الله ، وبالتالي فهو يحب الله ويزداد حبه بقدر ما تزداد معرفته لذاته وانفعالاته "[4] وبالتالي " فإن النفس ، باعتبارها تنشرح بهذا الحب الإلهي أو الغبطة ، تستطيع كبح شهواتها . ولما كانت قدرة الإنسان على كبح الانفعالات إنما تتمثل في الفهم لا غير ، فلا أحد إذاً تحصل له بهجة السعادة بكبح شهواته ، بل على العكس ، إن القدرة على كبح الشهوات تنشأ عن السعادة نفسها "[5]. فإن الخير الوحيد الذي يدركه عقلنا والخير الخلقي ما أنمى العقل والشر ما انتقصه وأفسده ، وذلك هو الدين الحق الذي نجده في أنفسنا[6]، لذا كان " الورع هو حبنا لمن أثار اعجابنا "[7].

" وليس اكتمال الذهن غير معرفة الله وصفاته والأعمال اللازمة عن وجوب طبيعته[8]. وعلى ذلك فإن الغاية القصوى للإنسان الذي يهتدي بالعقل ، أي الرغبة

1. سبينوزا : المصدر السابق ، ص 311 .
2. على اعتبار أن النفس فكرة الجسم ولا توجد إلا بوجود الجسم .
3. عويضة ، كامل محمد محمد ، باروخ سبينوزا " فيلسوف المنطق الجديد " ؛ دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ، ط 1 ، 1993، ص 64 .
4. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 329 .
5. المصدر السابق ، ص 351 .
6. كامل محمد عويضة : اسبينوزا ، ص 64 .
7. سبينوزا ، المصدر السابق ، ص 215 .
8. يقول سبينوزا : " مع أن المعرفة الفطرية معرفة إلهية بمعنى الكلمة ، فإننا لا يمكن أن نسمي من يقومون بنشرها أنبياء ، إذ يستطيع كل فرد أن يدرك تعاليم المعرفة الفطرية ويفهمها بنفس اليقين ، دون الاعتماد على الايمان وحده " (سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص 120) وتالياً فإن النبي لم يكن عالماً أو فيلسوفاً وما كان بأمكانه أن يكون لذلك ، فهو لم يمتلك المعرفة التي

الرئيسية التي تسمح له بتنظيم كل الرغبات الأخرى ، هي التي تدفعه إلى تصور نفسه ، وتصور جميع الأشياء التي تظهر لعقله بوضوح ، على نحو تام "[1]. فمن شأن طبيعة الإنسان المتناهية أن تدعه غير معقول عند نفسه ، وهو إنما يعقل ذاته بردها إلى النظام الكلي السرمدي ، واعتبارها جزءاً من الجوهر الأوحد[2]. فالله (كسبب فعال)[3] هو جوهر ذاته ، وجوهر كل شيء ، وعلة ذاته ، ومن هنا جاءت وحدانيته[4]. وهكذا يظن الإنسان إنه برقيه وتقدمه الأخلاقي سيبلغ مرحلة الاتحاد بالله ، فإذ تحقق رقيه وأنتهى تقدمه ، أدرك إنه لم يكن منفصلاً عنه أبداً[5].

المبحث3 /من الحياة العقلية إلى الحياة العملية From rational life to practical life

يقول سبينوزا : " انني أريد توجيه العلوم نحو غاية واحدة وهدف أوحد وهو بلوغ ذلك الكمال الإنساني الأعظم ... وبالتالي ينبغي أن نطرح عرض الحائط كل ما لا يفيدنا في العلوم للاقتراب من هدفنا ، وباختصار يجب أن نوجه كل أعمالنا وأفكارنا في إتجاه هذه الغاية "[6]. ولما كانت ماهية الإنسان في نظر سبينوزا -كما مر بنا- هي الرغبة ، فإن الحياة "العاطفية" والشعورية ستكون هي الأولى بالنسبة للإنسان ، وعليها تتأسس الحياة العقلية كتصور واضح متميز للذات والعالم وكتأمل[7].

تؤهله لفعل ذلك ، وظل على مستوى المعرفة الظنية ، ثم إن مهمته انحصرت في التعاليم الأخلاقية والقواعد العلمية ، وهي الركن الهام في كل وحي (منذر شباني : سبينوزا واللاهوت ، ص 92) .

1. سبينوزا : المصدر السابق ، ص 303 .

2. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص 115 .

3 ان كون الله ينتج من خلال نفس الصفات التي تؤسس لجوهره يعني أن الله هو سبب كل الأشياء بنفس المعنى إنه سبب ذاته . ومن ثم فإن وحدة الصفات تمتد إلى وحدة السبب ، فيقال في ذلك "السبب الفعال" بنفس معنى "السبب في ذاته" (Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 53 .).

4 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 53 .

5. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص 118 .

6. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص 31 .

7. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 56 .

ولتكن البداية من هنا ، فقد أشار سبينوزا إلى أربعة أنواع من ضروب الادراك ، هي اختصاراً على النحو الآتي :

1-ادراك مكتسب بالسماع . 2- ادراك مكتسب بالتجربة المبهمة ، أي تجربة لا يحددها العقل ، وهو إدراك يبقى فينا راسخ ما لم تكذبها أي تجربة أخرى . 3- ادراك نستنبط فيه ماهية الأشياء من أشياء أخرى ، أي عندما نستنبط من المعلول علته ، وهو ادراك عقلي . 4- ويوجد أخيراً ادراك للشيء بماهيته وحدها ، أو من خلال معرفة علته القريبة .[1] وهذه الأخيرة هي المعرفة العقلية الحدسية .

ففيما يتعلق (بالضرب الثاني) من ضروب الادراك يرى سبينوزا " إن هذه المعرفة مشكوك فيها كثيراً وليست معرفة نهائية ... وبالتالي لا بد من استبعاد هذا النوع من المعرفة ، وعلى خلاف ما سبق ، يجب أن نقول عن (الضرب الثالث) من ضروب المعرفة إنه يقدم لنا فكرة الشيء ، كما إنه يسمح بالاستنتاج دونما خوف من الوقوع في الخطأ ، إلا إنه لا يفيد بذاته في بلوغ الكمال ، (الضرب الرابع) هو الوحيد الذي يدرك ماهية الشيء التامة دونما خوف من الوقوع في الخطأ ، وبالتالي فعلينا باستخدامه بوجه خاص"[2].

إن حياتنا العملية تابعة لحياتنا العقلية[3]، وتختلف باختلافها : ففي معرفة "الضرب الثالث" نعلم أن الطبيعة خاضعة لقوانين كلية ، وإننا جزء من هذه الطبيعة ، فنهتدي بأفكار المطابقة ونصير فاعلين بعد أن كنا منفعلين ، ذلك أننا حالما ندرك بالعقل أن أفراحنا وأحزاننا نتائج القوانين الطبيعية[4]، وبالمعرفة التي من " الضرب

---

1. ينظر ، سبينوزا : المصدر السابق ، ص 32 .

2. المصدر السابق ، ص 34-35 .

3. يقول سبينوزا في السطور الأخيرة – غير المفقودة – من رسالته في اصلاح العقل : " لن أنظر هنا في ضروب التفكير الأخرى ، كالحب والفرح وما إليهما ، لأنها لا تفيد في تقدم مشروعنا الحالي ، ولا يمكن تصورها إلا بعد أن يتم إدراك العقل . فعلاً لو زال الادراك أزالت ضروب التفكير تلك " (سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص 62).

4. على اعتبار أننا في معرفة الضرب الأول نتصور ذاتنا شخصاً قائماً بنفسه، والأشياء المحيطة بنا بنا خيرات وشرور في أنفسها.

الرابع" ندرك ذاتنا ، ليس فقط كجزء من الطبيعة ، بل ندرك ذاتنا صادرة عن طبيعة "الله" ، إذ أن الفرد في حقيقة الأمر فكرة مجردة ، وليس الموجود الحق هو الفرد منفصلاً عن الكون ولا القانون الذي يربط الفرد بالكون ، بل الكون نفسه معتبراً لا كجملة أجزاء ، بل كوحدة جوهرية حاصلة في ذاتها على علة وجودها[1]. فجهد الإنسان في القدرة على الفهم بوضوح يتعمق في النوع الثالث من المعرفة ، ويصل إلى اكتماله في النوع الرابع ، حتى تبلغ قوة الادراك لديه الحقيقة الحدسية كقوة أو درجة من قوة الله المُطلقة أو اللا نهائية[2]. فهذه المعرفة – الأخيرة – (حدسية مباشرة) وتتجه إلى الماهية ، وهي كاملة لأنها تعتمد على الحدس العقلي المباشر[3]. لذا فإن فوز الإنسان بالسعادة الحقيقية لا يأتي من المعرفة الظنية "بالله" ، ولا مما هو محسوس أو مادي بل إن السبيل الوحيد للوصول إلى السعادة القصوى والسعادة الحقيقية هو معرفة "الله" بكل تجلياته[4].

لكن مشروع سبينوزا الأخلاقي لا يتمثل في تعويض حياة الوجدان والعاطفة بالحياة العقلية ، بقدر ما يتمثل في تنظير الحياة العقلية فوق حياة الوجدان والعاطفة ، بل في تحويل الحياة العاطفية إلى نطاق العقل ، أو بعبارة أخرى ، في إدراك حياة العواطف والانفعالات وفهمها فهماً صحيحاً[5]. فالعقل يقود الانسان لا إلى زيادة قوته في التمثيل ، وهو لا يزال ينتمي إلى مجال العاطفة فحسب ، بل هو يمنح الفاعلية للحصول على سعادة الفرد بتكوينه للأفكار الصحيحة[6]. وسبيل الإنسان إلى الحصول

---

1. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص 117 .

2 Deleuze , Gilles, Spinoza : Practical Philosophy ; p 104 .

3. ابراهيم ، ابراهيم مصطفى ، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم ؛ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الاسكندرية ، بلا ط ، 2001، ص 210 .

4. شحادة ، محمد و الابراهيم ، عبد الرحمن عبد ، بحث (اشكالية السعادة عند سبينوزا) ؛ مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية – سوريا ، سلسلة الآداب والعلوم الانسانية ، مجلد 38 ، العدد " -3- 2016 ، ص 462 .

5. جلال الدين سعيد : سبينوزا ، ص 114 .

6 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 103 .

الحصول على السعادة القصوى هو المعرفة الحدسية Scientia Intuitiva التي تؤهله للتعالي على حدود الزمان والمكان وادراك الأشياء في صورها الأزلية، ومن ثم الاتحاد "بالله" أو الطبيعة من حيث هي كل ... ففي المعرفة الحدسية لا يدرك الإنسان الأشياء في صورة قوانين مجردة ، بل يدركها من حيث هي أشياء حية محسوسة ، وبذلك يرى الأجزاء في الكل ويرى الكل في الأجزاء ، وحين يحصل المرء على المعرفة الحدسية يدرك بأنه موجود في "الله" ، وبأن "الله" موجود فيه ويغدو سعيداً[1].

أي أن الأخلاق التي ينادي بها سبينوزا هي : أن العلم ذاته له طابع عملي أخلاقي ، أي أن العلم والمعرفة يفتحان لنا أبواب الأخلاق ، مثلما تمهد الأخلاق الطريق للمعرفة . والمهم في الأمر إنه لا وجود "لأخلاق مجردة" منفصلة عن المجرى العام لعلم البشر ، وبذلك يتجاوز سبينوزا التفرقة بين (الواقع والواجب) ، أو بين (العلم النظري والبصيرة العلمية) ، وبين الأخلاق والعلم[2]. وليس معنى ذلك أن يتخلى الإنسان عن نفعه في سبيل التحليل العقلي المنطقي لكل الانفعالات ، فالتفكير والمعرفة لا يتعارضان مع تحقيق الإنسان لنفعه[3]، بل إنهما في الواقع يساعدان عليه ، فهو يعارض القائلين بأن سعي الإنسان إلى تحقيق نفعه الخاص رذيلة ، ويثبت في مجموعة من القضايا إن سعي الإنسان الي نفعه الخاص ، إذا استرشد بالعقل ، يكون هو ذاته قوام الفضيلة[4].

إن أخلاق سبينوزا تسير مع فكرته فيما وراء الطبيعة . فكما إن العقل في الميتافيزيقا يحاول أن يدرك القانون الكامن وراء الأشياء الجزئية التي تقع تحت الحس ، فهو يقرر إن العقل يجب أن يضع قانوناً ينتظم رغبات الإنسان المتنافرة . وبعدئذ يستطيع الإنسان أن يسلك سلوكاً يتفق مع ما يمليه العقل الذي يعيننا على أن

---

1. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص 122 .
2. فؤاد زكريا : اسبينوزا 205 .
3. مبدأ سبينوزا في ذلك أنه لا ضير في أن تضحي بنفسك من أجل غيرك إلا إذا كان في ذلك قوة لك ، وهكذا يجب أن يحب كل انسان نفسه ، وأن يلتمس كل وسيلة ممكنة تأخذ بيده إلى مرتبة أدنى إلى الكمال (زكي نجيب محمود : م (فلسفة سبينوزا -2-) ، ص 19-20) .
4. المصدر السابق ، ص 218 .

ننظر إلى المواقف المختلفة نظرة واسعة شاملة تنفذ بمساعدة الخيال إلى أبعد النتائج[1]. حيث " لا تجد النفس إلا في تخيّل الأشياء التي تثبت قوة فعلها الشخصية ... وعندما تتخيل النفس عجزها فإن ذلك يحزنها "[2]، فسبينوزا لا ينطلق من مرتكز صوفي[3] بقدر ما ينطلق من فلسفة عقلية ذات عمق ديكارتي ، يمجد الفكرة ويجعل لها المقام الأعلى في الاعتبار ، حتى لا يعدو في الوجود سوى الفكر مرتكزاً[4]. وبقدر ما يكون (جسم) الانسان الفرد أكثر قدرة من الآخرين على ادراك أشياء كثيرة في وقت واحد ، أو التحرك بطرق عديدة في وقت واحد ، كان (عقله) أكثر قدرة من الآخرين على فعل أشياء كثيرة في وقت واحد[5]، وفي ذلك نستشف تمهيداً لمثالية مطلقة هيجلية لا تقبل الشك .

إذ ليس هناك ما يسمى بقوى النفس ، فلا تمييز بين نفس وقوى ، ومن ثم لا تمييز بين (ارادة وعقل) ، ولكن الارادة ترجع الى العقل من حيث أن فكرة تتضمن ايجاباً : أي أن الارادة ميل العقل إلى قبول ما يروقه من المعاني واستبعاد ما لا يروقه[6] إذ يبين سبينوزا أن ارادة الإنسان ليست فقط القدرة الواعية لذاتها على الاثبات والنفي في مستوى القول ، بل هي أيضاً حركة الكيان بعينه ، بما هو جسم ووعي بالجسم تجاه الأشياء أو الكائنات الخارجية[7] وبالتالي فإن حكم الإنسان لنفسه

---

1. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 143 .
2. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 200 .
3 في حين أن هناك فلاسفة يرون أن الصواب هو على العكس من ذلك ، فمثلاً يشير "ولتر ستيس" إلى وجود عنصر دخيل على عقلانية فلسفة سبينوزا هو عنصر الفكر الصوفي والوجدان الصوفي ، على اعتبار أن التصورات التي يقدمها سبينوزا عن لا نهائية "الله" ، والسعادة القصوى ، والادراك الحدسي "لله" ، ولا حقيقة الزمان ، هي دلائل على وجود هذا العنصر الصوفي (ستيس ، ولتر ، الزمان والأزل مقال في فلسفة الدين ؛ ترجمة: زكريا ابراهيم ، مراجعة. أحمد فؤاد الأهواني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ، بلا ط ، 2013 ، ص 339-340) .
4. بدران بن الحسن : وحدة الوجود بين ابن عربي وسبينوزا ، ص 55-56 .
5 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 103 .
6. كامل مصطفى عويضة : اسبينوزا ، ص 61 .
7. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 63 .

لنفسه هو أعظم ما يطلبه من حرية ، وهي حرية أنبل من التي يسميها الناس بالارادة الحرة[1].

المبحث الرابع / السعادة والفضيلة Happinese and virtue

يقول سبينوزا : " لقد دهشت مراراً من رؤية أناس يفتخرون بإيمانهم بالدين المسيحي[2]... أي يؤمنون بالحب والسعادة والسلام والعفة والاخلاص لجميع الناس ، ويتنازعون مع ذلك بخبث شديد ويظهرون أشد أنواع الحقد ، حيث يظهر إيمانهم في عدائهم لا في ممارستهم للفضيلة"[3]. والفضيلة يعرفها سبينوزا من حيث علاقتها علاقتها بالإنسان بأنها " هي عين ماهيته أو طبيعته ، بوصفه قادراً على القيام ببعض الأشياء التي يمكن معرفتها بقوانين طبيعته وحدها"[4] ، فالمؤمنون بحق هم " أولئك الذين يدعون الناس من حولهم إلى العدل والاحسان بقدر ما تسمح لهم عقولهم وقدراتهم "[5]. فطالما أن الفضيلة ترتبط بالفهم ، فمن الطبيعي أن يزداد المرء اقتراباً اقتراباً منها كلما اتسع نطاق فهمه للأشياء ، حتى إذا ما توصل إلى تأمل النظام الكلي للأشياء في ضرورته الشاملة حقق بذلك أسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من الفضائل ، وأمكنه التغلب تماماً على انفعالاته عن طريق ربطها بالضرورة الكونية الشاملة[6]. ومن هنا فإن أخلاق سبينوزا أخلاق يونانية في جوهرها أكثر منها مسيحية ، لأنه يعتبر محاولة الفهم الأساس الأول والأوحد للفضيلة . وهو بذلك يتفق مع "سقراط" تماماً الذي ذهب إلى أن الفضيلة هي المعرفة[7].

---

1. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 144 .
2. يشمل سبينوزا المثال ذاته على ديانات أخرى كاليهودية والاسلامية وحتى الوثنية .
3. سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص 109 .
4. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 234 .
5. سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص 353 .
6. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 218-219 .
7. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 142 .

إن المشكل الذي يتناوله سبينوزا بالدرجة الأولى لا يتعلق ببداهة المعرفة ، مثلما الشأن بالنسبة إلى ديكارت مثلاً وإنما هو يتعلق بصحة النفس وسعادتها القصوى ، فالسؤال الذي كان سبينوزا يطرحه على نفسه هو ليس " ماذا يجب أن أفعل؟ " وإنما : " ماذا يجب أن أفعل كي أفوز بالسعادة ؟ "[1].

إن سعادة الحكيم وسكينته برأي سبينوزا ليست مكافأة لفضيلته بل هي الفضيلة نفسها ، يتحلى بها ليس بسبب قدرته على التحكم في نزواته وشهواته وإنما على العكس من ذلك بسبب اكتسابه لها تفقد شهوات العالم المحدود سلطانها عليه[2]" فليست الغبطة جزاء الفضيلة ، بل هي الفضيلة عينها ، ولا ينشرح صدرنا لكوننا نكبح شهواتنا ، بل على العكس ، إن انشراحنا هو ما يسمح بكبح شهواتنا "[3]. من هنا فإن الأخلاق عند سبينوزا – على حد قول دولوز – تقدم نفسها كنظرية للسلطة ، في مواجهة الأخلاق كنظرية للالتزامات[4].

إذن السعادة الروحية التي تتمثل في الحب المتجه إلى الله ، ليست جزاء الفضيلة بل الفضيلة ذاتها ، ونحن لا ننعم بها لأننا نتحكم في شهواتنا ، بل نحن نتحكم في شهواتنا لأننا ننعم بها[5] " فمن يدأب على التحكم في إنفعالاته وشهواته وفقاً لحب الحرية لا غير ، سيبذل قصارى جهده من أجل معرفة الفضائل وعللها ... ومن يسهر على احترام هذه القاعدة – وليس هذابالأمر العسير – ويتدرب عليها سيصبح قادراً ، بلا شك ، في مدة قصيرة على توجيه أعماله وفقاً لما يأمر به العقل "[6] إذ " لا يتم الخلاص إلا لمن يطبقون هذه القاعدة في الحياة ، أي لمن يطيعون الله ، على حين

1. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ص 19 (ضمن التقديم) .
2. جوازيا رويس : روح الفلسفة الحديثة ، ص146 .
3. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 350 .
4 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 104 .
5. رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج3 ، ص 131 .
6. سبينوزا : المصدر السابق ، ص 327 .

يهلك من يعيشون تحت سيطرة اللذات . ولو لم يعتقد الناس بذلك اعتقاداً جازماً لما كان هناك ما يدعوهم إلى ايثار طاعة الله على السعي وراء اللذات "[1].

فالإنسان الحكيم من النادر أن يشعر بخواء الروح ، وكونه يكون واعياً بقيمته وبوجود "الله" والأشياء ، وبوجود ضرورة أبدية ، فإنه لا يفقد احساسه بوجوده أبداً ، ويشعر بالتوافق الروحي وثراء حياته الروحية[2] " وهكذا ندرك ما هي منزلة الحكيم ، وما مدى تفوقه على الجاهل الذي لا ينقاد إلا لشهواته ... الحكيم من حيث هو حكيم ، فإن الاضطراب لا يعرف إلى قلبه منفذاً بل هو – نظراً إلى ما يتصف به ، وفق ضرورة أزلية محدودة ، من وعي بذاته وبالإله وبالأشياء – لا يكّف عن الوجود أبداً وينعم بانبساط الروح الحقيقي "[3].

فالحرية الحقة هي سيطرة العقل وفاعليته وهي التخلص من أغلال العواطف العمياء التي لا تسترشد بهدى العقل . ولن يكون الإنسان حراً إلا بقدر ما هو عالم عاقل . ولكي تكون انساناً كاملاً لا ينبغي أن تتحرر من قيود المجتمع ونظامه ، لأن سمو الإنسان هو في التحرر من فردية الغرائز وتحكمها ، وبهذا وحده يكمل الإنسان الحكيم[4] . فالإنسان الأخلاقي الذي ينشده سبينوزا هو الذي يحرر نفسه من تلك الغرائز ويترفع عما يمكن أن ينتج عنها من رغبات ، فليست العظمة أن تحكم الآخرين ، وإنما في أن تحكم نفسك[5]. لذا كان تحقيق السعادة مرهوناً بمدى تحرر الإنسان من الأوهام الأخلاقية الفضّة ، ودفعه الى فهم انفعالاته وضبطها وتنظيمها ، وتعّقل عللها وأسبابها ، حيث يصير انتاج المعرفة عن علل الانفعالات وأسبابها يمكننا من امتلاك قدرة على الفعل من أجل التحرر ، بهدف تحقيق السعادة[6].

---

1. سبينوزا : رسالة لاهوتية سياسية ، ص 351 .
2. جوازيا رويس : روح الفلسفة الحديثة ، ص146 .
3. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 351 .
4. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 143 .
5. زكي نجيب محمود : م (فلسفة سبينوزا –2–) ، ص 20 .
6. بلال مراوي : بحث (الرغبة والنسق الايثولوجي في فلسفة سبينوزا) ، ص 15 .

وهكذا نجد سبينوزا متفقاً مع سقراط ، في أن الفضيلة علم والرذيلة جهل ، لكن سبينوزا يعرف الفكرة على طريقته الخاصة ، إذ للمعرفة أنواع ثلاثة هي "الظن والاعتقاد والمعرفة الواضحة". الأولى أصل الانفعالات المخالفة للعقل . والثانية أصل الرغبات الطيبة والثالثة أصل الحب الحقيقي . ليصحح سبينوزا قول سقراط بحيث يصبح : " الرذيلة معرفة باطلة أو ظن معرض للخطأ ، والفضيلة معرفة صحيحة"[1] ، وفلسفة سبينوزا ، في جانبها العملي ، إنما ترفض كل ما يفصل المرء عن الحياة ، فالقيم التي تنقلب ضد الحياة في نظره هي قيم متعالية سببها الوهم[2]. " ومن المفيد في الحياة ، قبل كل شيء ، أن يستكمل المرء ذهنه أو عقله قدر الإمكان ، ففي ذلك فقط تتمثل سعادة الإنسان القصوى وغبطته ، إذ لا تعدو أن تكون الغبطة إلا رضى النفس الذي ينشأ عن معرفة الله معرفة حدسية "[3].

فبينما كان ديكارت يبحث عن الحق بعقله ، وبسكال عن السعادة والخلاص بقلبه ، كان سبينوزا يبحث عن كل ذلك بعقله ، بل كان يبحث عن الحق لغاية السعادة والخلاص[4] إذ " لا تعدو معرفة الخير والشر إلا أن تكون انفعال الفرح أو الحزن[5] ، ، من حيث وعينا به "[6] "فكل ما نتخيل إنه يقودنا إلى الفرح فإنا نجدّ في الحصول عليه ، وكل ما نتخيل إنه مناقض له أو يقودنا إلى الحزن فإنا نجدّ في إقصائه أو تحطيمه"[7]. فالشر لا يوجد عند سبينوزا إلا من حيث الأفكار غير الملائمة ، وفي مشاعر الحزن التي تنجم عنها كالكراهية والغضب وماشابه[8].

---

1. فؤاد زكريا : اسبينوزا ، ص 218 .

2 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 26 .

3. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 302-303 .

4. سبينوزا : رسالة في اصلاح العقل ، ص 18 (ضمن التقديم) .

5. يقول سبينوزا عن الندم بأنه : " حزن مصحوب بفكرة شيء نعتقد أننا قمنا به بأمر أنفسنا " (سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 219).

6. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 240 .

7. المصدر السابق ، ص 175 .

8 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 36 .

من هنا قامت نظرية الرغبة لدى سبينوزا على التمييز بين (الرغبة والارادة) ، فهو يعرف الرغبة بوصفها "ميل النفس إلى ما تراه حسناً " والارادة بوصفها القدرة على الاثبات أو النفي ، وبوصفها القرار الداخلي الذي يؤكد أن موضوع رغباتنا إنما هو حسن[1] " فلقد غدا من الثابت إذاً أننا لا نسعى إلى شيء ولا نريده ولا نشتهيه ولا نرغب فيه لكوننا نعتقده خيراً ، بل نحن ، على العكس من ذلك ، نعتبره خيراً لكوننا نسعى إليه ونريده ونشتهيه ونرغب فيه "[2] وبالتالي فإن أساس الفضيلة ليس ليس إلا مجهود الإنسان في الاحتفاظ ببقائه ، وسعادة الإنسان تتألف من قوة الإنسان على حماية وجوده[3] ، وقوة الإنسان جزء من قوة الله ، أو الطبيعة اللا نهائية[4].

والرجل الحر لا يفكر فيما هو أدنى من الموت ، وحكمته هي تأمل لا في الموت وإنما في الحياة ، إن الجهل وحده هو الذي يجعلنا نظن أننا يمكننا أن نعدل المستقبل ، فما سيكون سيكون والمستقبل ثابت ثباتاً لا تعديل فيه شأنه في ذلك شأن الماضي . ذلك هو السبب في أننا ندين الرجاء والخوف : فكلاهما يستند إلى النظر إلى المستقبل على إنه غير يقيني ، وهما من ثم ينبعان من افتقار إلى الحكمة[5].

لكن " من تخيّل هلاك ما يكره كان مسروراً"[6]. لذا فإن السعادة تتم بما يجلبه الإنسان لنفسه حتى يتمكن من العيش الرغيد ويجب على الإنسان أن يعرف أن هناك نقطة بداية في كل حياة ، فالرجوع الى الماضي الإنساني الذي عاشه ، ومهما كان نمط الحياة فإنه يجلب الشقاء النفسي الذي يجعل الفرد بعيداً عن متناول هدفه ، لذلك يجب أن يكون السعي وراء الحياة مليئاً بالمثابرة وموّجهاً نحو الأهداف السامية[7].

---

1. فاطمة الشامخ : سبينوزا والنسقية ، ص 61 .
2. سبينوزا : المصدر السابق ، ص 158 .
3. جون ديوي : قصة الفلسفة ، ص 141 .
4 Deleuze , Gilles , Spinoza : Practical Philosophy ; p 98 .
5. رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج3 ، ص 127 .
6. سبينوزا : علم الأخلاق ، ص 168 .
7. محمد شحادة وآخر : بحث (اشكالية السعادة عند سبينوزا) ، ص 458 .

والكمال عند سبينوزا هي القوة العقلية المتزنة ، لذا كلما درج الإنسان صاعداً في سبيل القوة العقلية كان أقرب إلى الكمال ، وكان بالتالي سعيداً مطمئن النفس(1). وكما لا يطلب "الله" مقابلاً عن حبه للأشياء ، كذلك فمن وصل هذه المرحلة من الكمال لا يطلب مقابلاً لحبه ، فلا يسعى الإنسان الى الفضيلة طمعاً في شيء أو خوفاً من شيء ، بل من أجل الفضيلة ذاتها ولذاتها ، وتبقى سعادة الإنسان القصوى هي تحقيق الذات الإنسانية عن طريق اتحاد الإنسان "بالله" أو الحقيقة(2).

تلك السعادة هي التي وصفها سبينوزا بانبساط الروح الحقيقي ، والتي يقول عنها : " ولئن بدا السبيل الذي أشرت إليه وعر جداً ، فإنه لا يتعذر مع ذلك الاهتداء إليه ، إذ لا شك أن كل ما يندر وجوده يصعب بلوغه ، إذ هل يعقل ، لو كان الخلاص في متناولنا وبوسعنا الفوز به دونما عناء شديد ، ألا يعبأ به أحد تقريباً ؟ لكن كل ما يكون نفيساً يكون صعب المنال بقدر ما يكون نادراً "(3) ، وقد عبر سبينوزا عن تلك الفكرة بقوله "الإنسان المطيع حقاً هو صاحب الإيمان الحق ، أي ذلك الذي يكون الخلاص ثمرة له"(4). وما الخلاص في رأي سبينوزا إلا فوزاً مقترناً بالفضيلة مع السعادة .

استنتاجات :

أولاً : من خلال قراءتنا لسبينوزا رأينا أن هناك وحدة جوهرية في مشروعه الأخلاقي ظهر مع رسالته عن السعادة ، وتطور في رسالته عن اصلاح العقل ، لتكتمل في منهجية كتابه علم الأخلاق ، وهذا التوازن ما بين (الفكرة والواقع) هو الذي أدى أن تكون " غاية النظر هي العمل " ، وأن يكون اتجاهه الفلسفي الأساسي أخلاقي كما هو الحال عن الرواقيين .

1. زكي نجيب محمود : م (فلسفة سبينوزا -2-) ، ص 19 .
2. كريم متى : الفلسفة الحديثة ، ص 123 .
3. سبينوزا ، علم الأخلاق ، ص 351-352 .
4. سبينوزا : رسالة لاهوتية وسياسية ، ص 348 .

ثانياً : إن المنهج العقلاني في المجال الأخلاقي (العملي) عند سبينوزا ، أدى به إلى ادراج موضوعات ميتافيزيقية في ذلك المجال ، فهو يرفض تفرقة الفلاسفة التقليديين بين مجال المعرفة النظرية ومجال المعرفة العملية ، فالأول يتمثل في الميتافيزيقا ، أما الثاني فميدانه هو السلوك الإنساني .

ثالثاً : إن النظرة إلى الإنسان وانفعالاته على أنها جزء لا يتجزأ من الطبيعة ، هي التي حدت بسبينوزا أن يصّور لنا بأن (اللذة والألم) ، ومن بعدهما (الرغبة) ، هي عين ماهية الإنسان ، ولما كانت الرغبة تعني حفظ النوع ، فإن كل عمل يؤدي إلى المحافظة على الإنسان ومن ثم منفعته يعد خيراً ، والإنسان لن يبلغ غايته ولن يتحقق وجوده في حياة فاضلة إلا بالعيش وفق قوانين طبيعته الشخصية.

رابعاً : إن سعي الإنسان إلى التغلب على انفعالاته عند سبينوزا يؤدي هو ذاته إلى تأكيد المعاني الاجتماعية في نفسه . ومن هنا تحديداً كان (الكوناتوس) – بوصفه الجهد الذي يسعى كل كائن للاستمرار في كيانه – مُفّسراً لكل مظاهر السلوك الإنساني ، لكونه هو ما يُظهر قدرة الفرد في أن يثبت ذاته ، ويمثل أيضاً مبدأ للفاعلية ، لذا كان كل ما يعوق فعل الإنسان شراً بعينه . وهذا ما فسر لسبينوزا أن الانفعالات هي أساس الشقاق بين الناس.

خامساً : إن القول (بأن الإنسان لا يقف بمعزل عن الطبيعة وقوانينها) يمثل أهم طابع لنظرية سبينوزا عن الإنسان وحياته العملية ، فالإنسان محكوم بالجبرية كونه " لا يتحكم في أفعاله بحرية " ، ومن المحال أن يكون الإنسان حراً ، وأن تكون له مشيئة تسلك من تلقاء ذاتها دون أن يتحكم في سلوكها سبب خارجي . فكل شيء يحدث هو تجّلٍ لطبيعة " الله " التي لا يمكن فهمها ، وبالتالي من المُحال منطقياً أن تكون الأَحداث غير ما هي عليه . فذلك هو النظام القائم على مبدأ الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة .

سادساً : حياتنا العملية تابعة لحياتنا العقلية وتختلف باختلافها ، وفي ذلك تناقض واضح وقع فيه سبينوزا حينما أشار إلى أن الحياة العاطفية والشعورية هي الأولى ، وأن عليها تتأسس الحياة العقلية كتصور واضح متميز للذات والعالم وكتأمل . ذلك أن فهم سبينوزا للإنسان لا يتمثل في تعويض حياة الوجدان والعاطفة بالحياة العقلية ، بقدر ما يتمثل في تنضير الحياة العقلية فوق حياة الوجدان والعاطفة . بل في تحويل الحياة العاطفية إلى نطاق العقل . (مع أن ذلك يعد سبقاً لسبينوزا على هيجل في الدعوة الى مثالية واقعية مفادها : كل ما هو عقلي واقعي ، وبالتالي مشروعية اخضاع الواقع لمنطق الفكر).

سابعاً : أن يكون للعلم ذاته طابع عملي لا تأملي ، وأن لا يكون هنالك وجود لأخلاق مجردة منفصلة عن المجرى العام لعلم البشر . لم يمنعا أن تكون نظرة سبينوزا للإنسان ولحياته العملية نظرة ميتافيزيقية في فلسفته ، فالأخلاق تسير مع فكرة ما وراء الطبيعة ، ما دام العقل هو الذي يضع القانون الذي تنتظم فيها رغبات الإنسان المتنافرة ، كي يستطيع أن يسلك سلوكاً يتفق مع ما يمليه عليه العقل ، فسبينوزا رفض تماماً تفرقة الفلاسفة التقليديين بين مجال المعرفة النظرية الخالصة وهو (الميتافيزيقا) ومجال المعرفة العملية وهو (الأخلاق) . وهنا يقع سبينوزا – مرة أخرى – في المثالية ، رغم مناداته بواقعية الإنسان ، وبجدوى حياته العملية .

ثامناً : السؤال المتضمن في الذاتية ، والسابق لقواعد الأخلاق العملية في صيغتها الكانطية ، أي ماذا ينبغي أن أفعل كي أفوز بالسعادة ، أشار فيه سبينوزا إلى أنه لا بد من التحرر أولاً من فردية الغرائز وتحكمها ، فالفضيلة علم والرذيلة جهل . ذلك هو النسق السقراطي السبينوزي (في تناغم المعرفة مع الفضيلة) ، والذي مؤداه إن الجهل وحده هو الذي يجعلنا أن نظن أننا يمكن أن نعّدل المستقبل . لذا كان من المفترض أن نبحث عن الحق بالعقل لتحقيق

غاية السعادة والخلاص ، والإنسان المطيع والفاضل حقاً هو صاحب الايمان الحق ، أي ذلك الذي يكون الخلاص ثمرة له .

References

1. **Al-Risala Magazine**, a weekly magazine for literature, science and the arts - Cairo, Editor-in-Chief: Ahmed Hassan Al-Zayyat, Issue 15, first year, August 1933, pg. 20.
2. Al-Shamikh, Fatima Haddad, **Systematic Philosophy and the Systematic Political Philosophy of Spinoza**; Translated by: Jalal Al-Din Saeed, review. Saleh Mosbah, Believers Without Borders Foundation for Publishing and Distribution - Lebanon, Beirut, Ministry of Cultural Affairs, Tunis Institute for Translation, 2nd edition, 2017, p. 69.
3. Bilal Marawi: Research, **Desire and Ethological Pattern in Spinoza's Philosophy**, p. 10).
4. Deleuze, Gilles, **Spinoza: Practical Philosophy**; Translated by: Robert Hurley, City Lights Books, San Francisco, First edition in English, 1988, p. 13.
5. Dewey, John, **The Story of Philosophy from Plato to John Dewey**, translated by: Fathallah Muhammad Al-Mashasha, Dar Al-Maarif Company, Publishers - Beirut, Lebanon, 2nd edition, 2017, p. 141.
6. Ibn al-Hasan, Badran, research: **The Philosophy of Unity of Existence between Ibn Arabi and Spinoza**, Annals of Heritage Journal, University of Mostaganem - Algeria; Issue 10, 2010, p. 56
7. Ibrahim Mustafa Ibrahim: **Modern Philosophy from Descartes to Hume**, p. 205.
8. Ibrahim, Mustafa Ibrahim, **Modern Philosophy from Descartes to Hume**; Dar Al-Wafaa for the world of printing and publishing - Alexandria, Bala, 2001, pg. 210.
9. Karam, Youssef, **A History of Modern Philosophy**; Dar Al-Alam Al-Arabi - Cairo, 1st edition, 2001, p. 109.
10. Marawi, Bilal, research (**Desire and Ethological Pattern in Spinoza's Philosophy**), Believers Without Borders, Department of Philosophy and Human Sciences, November 2016, p. 9.

11. Matta, Karim, **Modern Philosophy Critical View**; Benghazi University Publications, Faculty of Arts, 1974, p. 91.
12. Oweida, Kamel Mohamed Mohamed, Baruch Spinoza, "**The New Philosopher of Logic**"; Scientific Books House - Beirut, Lebanon, 1st edition, 1993, pg. 64.
13. Oweida, Kamel Muhammad Muhammad, Baruch Spinoza, **The Philosopher of New Logic**, Dar Al-Kutub Al-Ilmiya - Beirut, Lebanon, 1st edition, 1993, p. 109.
14. Royce, Joazia, **The Soul of Modern Philosophy**; Translated by: Ahmed Al-Ansari, review. Hassan Hanafi, The National Center for Translation - Cairo, 2nd edition, 2009, p. 145
15. Russell, Bertrand, **A History of Western Philosophy**; Volume 3, translated by: Mohamed Fathi El-Shenety, The Egyptian General Book Organization, Bala, 1977, p. 120.
16. Shabani, Mundhir, **Spinoza and Theology**; Publications of the Ministry of Culture - The Syrian General Book Authority, Bala i, 2009, pg. 98
17. Shakht, Richard, **Pioneers of Modern Philosophy**; Translated by: Ahmed Hamdy Mahmoud, Reading Festival for All 97, Family Library, Egyptian General Book Authority, Bala I, 1997, p. 119.
18. Shehadeh, Muhammad and Al-Ibrahim, Abd al-Rahman Abd, research (**the problem of happiness at Spinoza**); Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Syria, Series of Arts and Humanities, Volume 38, Issue "-3-2016, p. 462.
19. Soleimani, Al-Hassan, research (**the dialectic of transcendence and immanence in modern philosophy - Spinoza's criticism of Aristotelian principles and the Cartesian foundations of divine transcendence**); Contrast Magazine, Issue 25-25,7, 2018, p. 25.
20. Spinoza, Baruch, **The Science of Ethics**; translated by: Dr. Jalal al-Din Saeed, revised by George Kattoura, The Arab Organization for Translation _ Center for Arab Unity Studies, ed. 1, 2009, p. 147
21. Spinoza, Baruch, **Treatise on the Reformation of the Mind (The Necessities of the Article**); Translated by: Jalal Al-Din Saeed, Dar Al-Janoub Publishing House - Tunis, Bala I, 1990, (within the introduction), p. 16.

22. Spinoza, Baruch, **Treatise on Theology and Politics**; Translated and presented by: Dr. Hassan Hanafi, review: d. Fouad Zakaria, Dar Al Tanweer for Printing, Publishing and Distribution - Beirut, 1st edition, 2005, p. 114.
23. Spinoza: **Correspondence from Spinoza to Schuller**, citing Sabila, Muhammad and Benabd Alali, Abdel Salam, Modern Philosophy, "Selected Texts"; East Africa - Morocco, Bla I, 2001, p. 273).
24. Stace, Walter, **History of Greek Philosophy**, translated by: Mujahid Abdel Moneim Mujahid, Dar Al Thaqafa for Publishing and Distribution - Cairo, without edition, 1984, p. 279
25. Stace, Walter, **Time and Eternity: An Essay on the Philosophy of Religion**; Translated by: Zakariya Ibrahim, review. Ahmed Fouad Al-Ahwany, The Egyptian General Book Organization - Cairo, without edition, 2013, pp. 339-340).

The human and practical life of Spinoza

Ziad Kamal Mustafa*

Abstract

Spinoza's human nature is inseparable from the anthropology of social life in his philosophy, Nor about his possible ranks of knowledge, Our practical life belongs to our mental life. But man himself is a one of Conditions "God" or nature as it is all, And it is governed in life by emotional elements, most notably (desire) As a direct expression of a person’s tendency to preserve his existence, being aware of this tendency, Therefore, it was necessary for the person to strive to overcome his emotions in order for this to confirm the social meanings in himself, That is the basis of virtue. True happiness, which is the desired goal of human life, does not lie in the pleasure of the body and the tendency to save survival, But in doing good. The "Conatus" is associated with this tendency, The power of being expressed necessarily within all individual beings represents the Infinity power of "God". If the wisdom of a

*** Asst. Prof./ Department of Philosophy/ College of Arts/ University of Mosul.**

free man is to meditate not in death but in life, Salvation will only occur for those who apply this rule in life: That is, for those who obey "God", Whereas those who live under the pleasure of perishing perish" And who imagined the destruction of what he hated was happy". This is the case of a person at Spinoza,and This is the nature of the good and practical life he must live.

Key words : Human , Desire , Nature , Practical life , Blessedness.